هدى عيد

حياة أخرى

رواية

الفارابي

حيـــاةٌ أُخـــرى

هدى عيد

روايـة

دار الفارابي

الكتاب: حياةٌ أُخرى
المؤلف: هدى عيد
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/11 ـــ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.comwww.dar-alfarabi.com
الطبعة الأولى 2012
ISBN: 978-9953-71-799-9
جميع الحقوق محفوظة
تباع النسخة الكترونياً على موقع: www.arabicebook.com

الإهداء،

إلى الرَّائِعَيْن لين وجاد بيرم

إلى كلّ من يَنْشُدُ الحبَّ

والحياة...

هدى

القسم الأوّل

في مارماريس المدينة البحرية الجميلة

... والبعضُ نحبُّهم
لكنّنا لا نجدُ صدىً لهذا الحبّ في قلوبهم...
فننهارُ وننكسرُ
ونتخبّطُ في حكاياتِ فاشلة...

جبران خليل جبران

[1]

يقول لي بابتسامٍ ساخر:

ـ أنظري يا فاطمة، لا بدَّ أنّه الباص الذي سيوصلكِ إلى جهنم الّتي تعدينني بها دائماً، هه، لقد وصلَ أخيراً.

بقيت العبارة معلّقة في رأسي، واستمرَّ خوفي معلّقاً.

في تلك اللحظة ما عاد زمنه مهماً، باتَ زمني هو الأهمّ، بات هو الأكثر كثافة، وحضوراً، أسمعه ولا أسمعه، أنظر إليه ولا أراه.

لا، ليس ما بي الإحساسُ بالخسارة، وإنّما هو إحساسٌ واضحٌ بالعجز، بانعدام القدرة على فعل شيء ما استطعت يوماً فعله.

ورقةً طائشة تتبدّى لي الحياة، أستطيعُ ركلها بقدمي، شوطها بعيداً، وحين يعلو صراخنا، تستحيلُ الحياة عينُها تياراً مائيّاً يمسكني من قدميّ، ويشدّني إلى الأسفل، يشدّني عميقاً، يقذفني من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين، ورأسي ذاهلٌ عن قياس المسافات.

ـ إلى الجحيم يا فاطمة، اذهبي ركضاً إليه، أو استقلّي الباص إذا شئت. الأمر سيّان.

يقولها لي، والسخرية تسيل من عينيه.

لكنّ الطائرة حطّت بخير، وتوقّف لساني عن قراءة الآيات القرآنية التي ما برحت أتلوها مُذ أقلع الطيّار.

اكتشفت مجدّداً أنني مؤمنة، رغم الجهود المتكرَّرة التي سفحتها خلال سنوات كي أكون مُلحدة، الرّحلة أكّدت لي فشلي، مازال قلبي عامراً بالإيمان.

أردت ألّا أُكلّمه إطلاقاً قبل مغادرتي المنزل، لكنني لم أستطع.

وقفت أمام باب الغرفة التي تشهد جُلّ معاركنا، طاف نظري على كل ما فيها، وابتسمت على قدر ما سمح لي اضطراب جوفي. سأفتقد سريري والمرآة، أمّا الجحيم فلا.

ـ هل تريدُ شيئاً من هناك؟

ـ تِسْ، لا.

تسيلُ الصّفرة من ابتسامته.

ـ مع السّلامة اذهبي، وانبسطي. وافرحي.

يهزّ رأسه بأناة، أغادر المكان.

[2]

يختم موظّف الأمن العام التركي الباسبور.

وجهُه محايد، يدفعه إليّ، أبتسم له بحكم العادة، لا يردّ ابتسامتي بأحسنَ منها.

أضع الباسبور في حقيبة يدي، أقفلها جيّداً.

ألحق بمجموعة المسافرين الذين ترجّلت وإيّاهم من الطّائرة، كانوا قد ابتعدوا قليلاً عني، استدللتُ عليهم من الفيليبنية التي تحمل الصبي الصّغير، الهواء في الخارج ناعمٌ لطيف، أسرعت الخطو، مازال ربّ تلك الأسرة على تعاليه، يتحدّث مع زوجته بتمرّد، صفع ابنته التي بدت لي في الثامنة من عمرها، ونترها من يدها بعنف. ركل ابنه الأصغر سناً على قفاه حين أراد المرور ضمن أعمدة الحاجز الحديدي، والتأرجح فيما بينها، ينهرُ بين حين وآخر الخادمة الفيليبنية عندما يرتفع صوت الصبي الذي تحمله:

ـ أَسكتيه.

تهزّ رأسها، ولا تجيب، تحاول إسكاته.

الزوجة تغرق في لامبالاتها، لا تعبأ به، هو لا يعبأ بالآخرين. اقتربتُ أكثر، داخلني اطمئنان ووجوهٌ كثيرة رأيتها في الطائرة عادت تحيط بي، زوجان شابان يتناغشان، طوال الرّحلة، هو يداعبها، ويقبّلها، وهي تزداد دلالاً ويزغرد صوتها، نظرت إليهما أكثر من مرّة.

وجوهٌ أخرى كثيرة لم أعرفها من قبل، لكنني راقبتها وقت الطيران، حين أنزع عينيَّ عن الغيوم، وقبلها عن الجبال والسهول التي تتوالى بعيدة صغيرة لا تكاد تبين، أحدّق إلى الغيوم البيضاء والرّمادية وقتاً، أستملح نعومتها، أنظر إلى الشاشة التي تشير إلى حرارة الخارج إلى ما دون الصّفر، أتملّى الوجوه بملل، لا أحسّ بألفة حيال أحد، رغم لطافتي العميقة، إلّا أنيّ لا آلف البشر بسهولة.

اخترت مقعداً متقدّماً في البولمن المريح الذي تولّى نقلي، وسائر المسافرين اللبنانيين القادمين برحلة استجمام، يستجمون من أجواء الوطن، يستريحون من حبّهم العنيف له.

المشاهد متنوّعة ما بين أشجار شامخة كالسّرو، والصّنوبر والشربين، ومساحات أخرى امتلأت بالأشجار المثمرة كالزيتون، والتّفاح، والخوج والتين، وسواها من الأشجار المتوسطيّة التي تعرفها بلادي جيّداً، لربّما انتقلت من هناك بحكم التاريخ الذي جمع البلدين، أيْ نعم هو تاريخٌ مشينٌ قابل للتجدّد وفقاً لمسار الأمور، لكن لا بدَّ أنّ فيه بُقعاً بيضاء قدَ زينته، قد تكون أشجار تين وزيتون، لِمَ لا؟

أحبّ أن أنظر إلى مشهد البيوت المتفرّقة، والتي تنتشر على مسافات متباعدة، تباعدها يعيدني إلى جوّ قروي فقدته في بلادي، إلتهم العمران كلّ شيء في الآونة الأخيرة، قضم الأخضر واليابس، فَرَمَ كلّ زاوية، وقرش حتى الحجر، تلالٌ بأسرها تختفي في أزمان قياسية، وتقوم مكانها بناياتٌ ذاتُ نوافذ وأبواب، أكوام من الحجارة والزجاج، جدران تنتصب بصلابة وبتحدّ أمام الوجوه.

الرّحلة ما بين مطار Dalaman ومارماريس تستغرق ساعتين، أكثر ما ميّزها هذا التوالد الهادئ لمشاهد الطبيعة الجميلة التي لا تكاد تنتهي، طبيعة بكر، وأخرى نسقتها يد الإنسان، لكنها في الحالين ممتعة جميلة.

سأحاول قدر الإمكان الاستمتاع بهذه الرّحلة، نصحتني بذلك نادية، قالت لي وعيناها تدمعان:

ـ سافري، ابتعدي قليلاً، ارتاحي وستكونين أفضل.

عانقتها وهي تبكي.

ـ لم يكن ينقصك غيرُ موت مسعود.

قالت ذلك، وعاودت البكاء.

أزحتها عن صدري، أكره البكاء.

ربّما أفادتني رحلة الاستجمام هذه، ربّما أفادني الانتقال من المكان، على ألّا أحمله في داخلي.

جوف الإنسان متسع المساحة، اتّساعه مخيفٌ أحياناً، يبتلع أشخاصاً وأمكنة، ومشاعر وهلوسات، أفكِّر بذلك من حين لآخر، مساحته تستطيع ابتلاع الأخضر واليابس، لكنّ مشكلتي الآن عسر الهضم الذي أعانيه، ما عاد جوفي يتسع.

البولمن يتقدّم بأناة، الطّريق رحيبة جميلة، أشجارٌ وخضرةٌ وهواءٌ لطيف. ثمّة أطفالٌ يتحرّكون حولي، آخرون تعبوا من الرّحلة، التزموا أماكنهم، بدا النعاس على وجوه، وأخرى بقيت متيقظة.

ـ مَامي، مامي، متى نصل؟

ـ بعد قليل جُو، إهدأ قليلاً.

ـ فندقنا جميل؟

ـ إنّه جميل جدّاً.

ـ أستطيع أن أسبح بمجرّد أن نصل، البيسين جميل، هل ينزل ميشال معي؟

ـ إفعل ما تريد، إهدأ الآن، البيسين جميل، وكلّ شيء جميل.

يقوم الصبي من جواري، ثمّ يعود...

جلس إلى جانبي لأنْ لا رفيق معي، وحيدة كعادتي. احتلت الأم وزوجها مقعدين متجاورين، وأشارت له نحو المقعد المجاور لمقعدها، والمتقابل مع مقعديهما. حركته الزّائدة أزعجتني قليلاً، حاولت تجاوزها، ابتسمت له بداية، لكنه لم يتوقف عند ابتسامتي، قد يكون أحسَّ بافتعالها، أعرف أن الأطفال أذكياء، استمرّ بالحركة وبطرح الأسئلة، صرفت وجهي نحو الخارج، وعدت إلى وحدتي:

ـ كلنا نسافر وحدنا في النهاية.

أين قرأتُ ذلك؟

في موسم الهجرة إلى الشمال، أحببت الرّواية كثيراً، قرأتها أكثر من مرّة، أصبحت القراءة متعتي الوحيدة بعد أن استفحل الكَيدُ بيني وبين حيّان. الآن أحاول متعة أخرى.

المشهد جميل، صدري ينفتح شيئاً فشيئاً، ومارماريس المدينة التركية البحرية الجميلة بدأت تظهر هناك في الأسفل،، تبدو لي وأنا أبصرها من نافذة البولمن من عَلٍ، تحوطها الجبال، وتستقرّ هي عند أقدامها على مساحة متسعة، بيوتٌ مقرمدة حمراء، و؟يلات وشاليهات، راحت كلّها تتبدّى لنظري، أطلقته نحو مسافات متقدّمة، سفنٌ تظهرُ بصواريها قريبة من الشّاطئ الطويل الذي تنفتح عليه المدينة، سفنٌ بنيّة خشبيّة داكنة، وأخرى بيضاء اللون جذابة، المشهد يدفعني إلى الإحساس بالانتعاش، وبالاختلاف.

أفكّر بالإنسان وبلهاثه وراء الاختلاف. سرابٌ خدّاع.

طوني، الموظّف المنتدب من قِبل شركة (نخّال للسياحة والسّفر)، والذي استقبلنا فور خروجنا من مطار Dalaman يستمرّ يثرثر، لا يتوقف عن الكلام، وعن ذكر مواصفات المدينة السياحية، وعن كمّ السّياح الهائل من الأجانب، يقصدونها كلّ عام لتمايزها، أما عن النشاطات الترفيهيّة، فيشير إلى اجتماع في صباح يوم الغد، عند التاسعة تماماً:

ـ نفصّل عندها كلّ شيء ـ يقول ـ لا تقلقوا، أنا هنا في خدمتكم.

الصبي إلى جواري لا يهدأ، في كلّ مرّة ينهض متجهاً إلى أمّه يحدّثها، أو يطرح عليها سؤالاً، أو يطلب إذناً لأمر ما ينوي فعله، تصرفه عنها متلهية بالصبي الآخر الذي تناغيه في حضنها.

يعود إلى مقعده، يعاود الحراك، أنتبهُ إلى أنّ عليّ ألّا أنزعج، وأن أفكِّر في جمال الأطفال بالمقابل، وفي انطلاقهم، وفي تحرّرهم من قيودي، وفي الشوق الذي عاش في صدري حيالهم زمناً ثمّ انطفأ، لا في أيّ شيء آخر.

ولكن هل انطفأ شوق الأمومة في ذاتي حقّاً؟ في زمن ما، في وقت مضى، كان الألم ينهشني في كلّ مرّة تعاودني الدّورة الشهرية، أكل روحي الألم، وفتّتها مرّات ومرّات. أستمرُّ خلال الفترة التي تتوسط الزمن الفاصل بين دورة وأخرى أحرص على مضاجعة حيّان بانتظام وبدقّة، وبحسابات لا تعرف الخطأ ولا التساهل، حتى حين كان يبدو أحياناً متعباً أو متململاً، كنت أتحايل عليه، أتزين وأنتقي العطور المثيرة التي يحبّها، أحياناً أشتري Baby Doll جديدة مثيرة أستحث همته، أفعل ما عليّ فعله، نقوم باللازم، وبعد ذلك أنتظر بقلق.

وهو، في السنوات الأولى من الزواج، لم يكن ينقصه الحماس، بمجرّد أن ألوّح له كان يستجيب، كامل الرّجولة، كامل الفحولة، هكذا كنت أجده، أو هكذا صوّر لي ذاته، بعدها كرّت السّنوات، الواحدة تلو الأخرى، الشهر فيها ينطح الآخر، ودورتي على انتظامها، لا تقدّم ولا تؤخر، تأتيني كلّ ثلاثين يوماً، تتدفّق دمائي بحرارة، ويتدفق ألمي وخيبتي، وإحساسي بالخذلان، وبالغضب المكتوم. ونادية تهدئني.

أسأل نفسي المرّة تلو الأخرى فيم أنا مقصّرة؟ فيمَ يقصّر هو؟ أسأل الأطباء، وأشتري المجلات التي تتحدّث عن العلاقات الزوجية، تشرّح وتفصِّل أصولها ووضعياتها لأتأكد أنّ كلّ ما يجب فعله، أفعله، ويفعله زوجي، وأكثر من ذلك كنت أحبّ زوجي، وأغرق بحبه، وأحسّ أحياناً أنني أذوب بين ذراعيه إذ يحتضنني، وأن روحي تتعالى وتتخبّط بين جدران صدري إذ أبلغ سعادتي.

مطحنة الأيّام آلة شيطانية.

البولمن يسلك الآن الطريق المستوية، بعد أن انتهى من كلّ الطرقات المنحدرة الكثيرة المنعطفات، ودخل فعلياً أرض المدينة. المندوب يعلن:

ـ نحن الآن في منطقة المارينا، متنزه كلّ السّياح.

إذا أحببتم نقوم معاً عند الحادية عشرة ليلاً باستكشافها، لكن الآن لا بدَّ من إيصالكم إلى فنادقكم.

ترتفع الأصوات مرحِّبة بالكلام.

[3]

مجموعات الركّاب تبدأ بالنزول تِباعاً في الفنادق المترامية على طول الشاطئ.

ربّما كنتُ الأخيرة التي غادرتِ البولمن مع زوجين شابين، حجز لي حيّان غرفة في فندق Grand Azur ، ونبهني أكثر من مرّة إلى كونه فندقاً ذا خمسة نجوم، كأنه يمنّني، لم أُبالِ، أمورٌ كثيرة ما عدتُ أعبأ بها، أكتفي بهزّ رأسي، وبالصّمت ملاذاً آمناً من النقاشات الفائرة التي بات يُغرقني بها. أهرب إذ أسمع صوته يتعالى، أتظاهر أني لم أعد أسمع، سمعي خفيف.

الغرفة التي نزلتُ فيها لطيفة مريحة، الشراشف نظيفة، وهو أمرٌ أحرص عليه دائماً: نظافة الغرفة، وإزالة كلّ ما يفسد صفاءَها، وتلميع كلّ ما فيها كأنّي ألمّع حياتي وأجلوها، لكنني أجدها أبداً ملأى بالبقع من كل نوع ولون.

مشهد الحديقة الذي أطلّ عليه من الشرفة الصّغيرة أنيقٌ جميل، نخيلٌ وورودٌ وأعشاب.

أقضي وقتاً أرتّب أشيائي، أسوّي بعض الـ تي شرت التي ابتعتها خِصيصاً لهذه الرّحلة، أجعلها فوق السّروايل الملائمة لكلّ منها. أعلّق الفساتين التي حملتها معي.

أضع فرشاة الأسنان والمعجون، والمشط في الحمام، أتحمس قليلاً عند رؤية المرآة المتسعة التي تعكس نظافة البورسلين والبانيو، أنظر وجهي في المرآة:

ـ لا بأس به، بعد كلّ ما كان.

أحادث نفسي، وألوي شفتيَّ.

أتمدّد على السّرير المرتّب، أنظر إلى السقف والسّتائر، أرفع ساقيَّ في الهواء، أحرّكمها بشكل نصف دائري، تمرين أتقنه منذ الصّغر، أحياناً حيّان ينهرني حين يراني أفعل ذلك:

ـ كأنك مازلت صغيرة، ألا تنظرين إلى وجهك في المرآة؟

ـ أنظره، ولا أجد آثارك عليه.

أجيبه في داخلي، لا يغادر الصّوت شفتيَّ.

أستمر في تحريك ساقيَّ.

أدندن بأغنية أُم كلثوم التي مازلت أفضلها على ما عداها «يا حبيبي يا عبير الشّوق يا حبيبي».

أفكّر بأن حيّان لم يفلح بقتل كلّ ما فيَّ، الحبّ كلّه، والشوق كلّه.

سأحاول أن أبعد طيفه عن رأسي، لا أريد أن أفكِّر فيه بعد الآن. ماذا يفعل؟ أين يذهب؟ من يلتقي؟ فليذهب إلى الجحيم، لا بأس.

أنظر ساعتي:

ـ الثّامنة إلّا عشر دقائق.

البوفيه المفتوح الذي يقدّم العشاء يبدأ عند الثّامنة.

ـ Message تصلني عبر الآي فون، صديقتي نادية، تقول: الحمد لله على السلامة، استمتعي بإقامتك.

المجنونة، رفضت أن ترافقني، تخاف أن تترك البلدة لئلا يصل يحيى أثناء غيابها. مجنونة حقيقية لا أدري كيف استمرت العلاقة بيننا، فيها ما يزعجني في الآونة الأخيرة.

ـ ربّما كان جنونها هو السّبب؟

ـ ربّما.

أسأل نفسي، وأجيبها، أحياناً تسليني هذه المحادثات.

مع الأيام اكتشفت أنّ بشراً كثراً يحادثون أنفسهم، غالباً ما أقبض على أحدهم، أو على إحداهن تخاطب نفسها أو نفسه بحماسة، بمجرّد أن يشعر الواحد بوجودي، يتنحنح ويصمت، أسرّ إذ أوقن أني لست وحدي وحيدة. أبدّل ملابسي بعد نهوضي عن السرير، أرتدي الفستان الأسود الأنيق الذي يُظهر جمال بشرتي وجسدي، أسوّي شعري، أطمئن: مازلت جذابة أنيقة.

مشاعري تربكني، لا تستقرّ على حال، مازلت حزينة على مسعود، موته آلمني في العمق، تمنيت لو لم أسافر إليه في السّنة الماضية، تمنيت لو لم أقترب منه ومن طيبته، ما كنت انقهرت بالشكل الذي حصل، أخواتي لم يحزنَّ حزني ربّما لأنهنّ لم يرينه منذ زمن بعيد، بعيد، فهو لم يزر لبنان منذ عشرين سنة. وفي الوقت عينه أحسّ خفّة ما، فرحاً صغيراً ينمو في صدري في كلّ لحظة أبتعد فيها عن حيّان.

[4]

أفضّل الجلوس في الصّالة المبرّدة، حيث أتناول الطعام بهدوء، أختار طاولة منفردة قريبة من الجدار، أنتقي أنواعاً من السلطة، كوباً من الحساء، أختار الستيك المشوي طبقاً رئيساً، أكتفي بقطعة واحدة متوسطة الحجم، أنتقي قطعاً من البطاطا المقلية المحمّرة، أحبّها رغم الوحدات الحرارية العالية التي تشتمل عليها. أرتب أمامي الأطباق، أجلس، أتأمل طريقة وضعي للصّحون، لن يُفسدها حيّان هذه المرّة، باتَ في الآونة الأخيرة يعيدُ ترتيب كلّ شيء أضعه على طاولة الطّعام، بمجرّد أن يجلس يحرّك الصحون من أماكنها، يُبعد أكواب الماء والشاي التي أنتقيها، ينقل إبريق الشاي، إبريق الحليب الزجاجي الصّغير، لا يدع شيئاً في مكانه، أهدأ بداية، أتظاهر باللامبالاة، بعدها أعيد الأشياء إلى أماكنها، أعيد كلّ شيء، الصّحون والأكواب، وعلبة الخبز، يلوي شفتيه، وينهض بغضب مكتوم.

يتكرر المشهد عند كل وجبة مشتركة، أحياناً يتخلّف عن الطعام إثر نقاش بيننا، لا أبحث الموضوع معه، يبقى معلّقاً، كما علّقت أمور كثيرة.

يا له من هدر! أن ألوك أيّامي كما ألوك قطعة اللحم الآن في فمي، لا أنا أزدردها، ولا أنا أبصقها، حياتي مع حيّان باتت كقطعة الستيك هذه، مشهدها في الصّحن شهيٌ مُغرٍ، لكنني حين ألوكها لا أتمكّن من ازدرادها بسهولة، تبقى عصية على الابتلاع.

النادل إلى جواري يملأ كوب الماء الذي فرغ دون أن أحسّ، أبتسم له:

ـ شكراً.

يبتسم بسخاء حانياً رأسه بتهذيب.

أي غبطة أن تجد من يعطيك دونما سؤال، قلّ العطاء في الحياة، لربما لذلك ينعدم الفرح.

حيّان ما عاد يعرف اللطف ولا اللياقة، قسوته تستحيل شجرة فارعة ذات أغصان لا يسهل تجاوزها.

لا يستحي الرّجل أن يحدّثني أحياناً عن بعض التفاصيل التي تحرجني، يجرح مشاعري ببساطة قاتلة، يخبرني مثلاً بأنّ زوجة صديقه قد وضعت مولوداً جديداً، ذكراً، كالذي أحلم به ـ يقول ـ أنت تعرفين طبعاً، ويكمل:

ـ أحضر حلوينة اليوم إلى المكتب احتفالاً.

يصمت بلؤم، ويبقى ينظر إليّ، أكتفي بالصّمت، أحياناً أغلق أذنيّ، وأغادر غرفة النوم حيث يحلو له الاسترسال بالكلام، ازدادت قسوته حدّة حين رحت أنقل له بعض ما يُقال عنه، أستفسر:

ـ هل هو فعلاً أكبر مُرتشٍ عرفته الدّوائر العقارية، واحد من الديناصورات التي تعرقل كلّ صغيرة وكبيرة حتى تتقاضى المعلوم؟

أسأله والاتهام يقفز من عينيّ، يسخر مني ومن عقلي المتخلف:

ـ ربّة الشرف والعفاف.

البارحة، وقبل مجيئي إلى هذا المكان الجميل، حلمتُ أنني أركب باصاً طويلاً عريضاً فاخراً، مقاعده جلدية أنيقة، كانت نادية صديقتي الحميمة التي تعرف كلّ أسراري معي، وقد جلسنا على المقعدين الأماميين، امرأة متنمّرة تجلس في الخلف، تنظر إلينا بعدائية لا مبررة، لم يكن ثمّة سائق لذاك الباص، قامت نادية من مكانها، راحت تحدّثني، حرّكت يدها لا أدري كيف، سمعنا صوتاً كأنه هدير محرّك، فإذا بالباص يندفع إلى الأمام ببطء بداية، وبسرعة لا تحدّ بعد ذلك. تنامى الذّعر في داخلي، إذ لا سائق لذلك الباص اللعين.

رحت أصرخ بنادية لتوقفه، وقلبي يخفق بشدّة، يرتجّ في صدري، ونادية بدت لامبالية، لا تستمع، تبتسم ببلاهة فقط، إذ علا صوت المرأة الجالسة في الخلف، راحت تضحك، ويهدر صوتها، وأنا أصرخ ولا أحد يسمع صوتي، ولا وجيب قلبي، والباص يعدو وينطلق بسرعة مجنونة، والأفق ينفتح أمامي على فراغ هائل يبتلعني، والهواء العاصف يصفر في كلّ اتجاه.

أزعجني المنام، خفت أن أركب الطائرة التي أقلّتني إلى هذا المكان؟ حين أخبرت حيّان بما رأيت، ضحك باستمتاع ما بعده، ثم قال لي:

ـ أنظري يا فاطمة، ها هو الباص الذي سيحملك إلى محبوبتك جهنم التي تنذرينني دائماً بها، انبسطي يا ستي لقد وصل.

انصرفتُ عنه. يتحوّل الشرّ إنساناً يحادثك!

مرّت الرّحلة بسلام، أستذكر حلمي الآن، أفكِّر بأنّ حياتي وحيّان ربّما تكون ذلك الباص الذي لا يريد أن يتوقف، أم أنا من لم يتخذ قرار إيقافه بعد!

أبتلع اللقمة بصعوبة، أشرب الماء مجدداً، أبعد معقدي عن طاولة الطعام، ثم أسير إلى الأمام.

[5]

أتمشّى خارج صالة الطّعام، أخرج إلى حديقة الفندق.

تنسيق وأشجارٌ وزهورٌ وتنوّعٌ، طاولاتٌ وكراسٍ متفرقة، أناسٌ من جنسيات مختلفة يتوزّعون المكان، يجلس بعضهم في مجموعات، بعضهم يجلسُ بشكل ثنائي، ثمّة فرقة موسيقية محدودة العدد تحتلّ زاوية مرصوفة ببلاط ملوّن جُعل على شكل مربّع متوسّط الحجم، موسيقى ناعمة مختلفة النغمات تهيمن في الأجواء.

أدور في الناحية أستكشفها، أجد طريقاً ضيقاً بين الشجر الملتف، أسلكه، ينتهي بي إلى سور يحيط بالحديقة، بوابة صغيرة مفتوحة على الطريق العام، والطريق العام ينفتح على مياه بحر إيجه، وكأنّه ينفتح على الدنيا بأسرها، أقف مبهورة، تسعدني المفاجأة، هكذا، مسافة قصيرة وينقلب المشهد!

بشرٌ من جنسيّات مختلفة، اللكنات تختلط، الأصوات تتعالى مرحة، أتذكر قول المتنبي:

«ملاعبُ جِنّة لو سار فيها

سليمان لسار بترجمان»

أبتسم لذاتي لأني تذكرت الكلام، أو لعليّ أبتسم لأن الكل يبدو كذلك، تصميم إنسانيّ على الفرح وعلى الإنطلاق، الإرادة البشرية يُقال، أتأمل الملابس الملوّنة الخفيفة، الأحذية البسيطة في الأقدام، الصنادل، المشايات، الحلقات المعدنية في بعض الآذان والأنوف، الشّعور المسترسلة، والأخرى الملونة ألواناً فاقعة، أفكِّر بأنّ الأجانب ههنا قد كسروا القيود، لا يظهرون إلّا بما يفكرون، قناعاتهم تبدو على مشهديتهم، (لا يشبهوننا)، أقول في ذاتي.

أنطلق، أجد نفسي أسير وأسير، أتلفّت حولي، أذوب في الجموع السّائرة بعد وقت، أتقدّم أكثر، فأحسّ بالعدد يكبر حولي، أذوب أكثر، يتسرّب إليَّ منهم إحساسٌ ما بالتحرر، بالرّاحة، أحسّ بأن جسدي قد أصبح فجأة أكثر خفّة وسرعة، أفيضُ نشاطاً.

عن يساري مَقاهٍ لا حصر لها ولا عدّ، مقاهٍ ذات نكهات متعدّدة، بعضها هادئ، والآخر صاخب، بعضها ينير مئات اللمبات الكهربائية، الآخر خافت الإضاءة وضع العاملون فيها على كلّ طاولة شمعة يتلاعب ضوؤها.

كلّها تقدّم عروضات راقصة، احتفالية، تغصّ بالرّواد، يقف نادلان أمام كلّ مقهى تقريباً، يدعوانك بابتسام إلى الدّخول، أبتسم لبعضهم، أهرب بعينيّ من البعض الآخر، يحرجني الإلحاح.

أنحاز ناحية اليمين، مياه البحر تناديني، تلتمع في ضوء النجوم، ساحرة، الأمواج خفيفة كسلى، تضربُ الحصى على الشاطئ بنعومة فائقة، كأنها تقبّله، تتقدّم من السائرين ثمّ تتراخى بسرعة، أنثى ناعسة لا تريد مغادرة السّرير.

تغريني المياه، لكنّ العتمة البعيدة تُثير الخوف في ذاتي، أفضل السباحة في النهار، في عزّ الضوء، الوضوح حاجة مُلحّة لي، أحبّ أن أرى كلّ ما يحيط بي جيّداً، العتمة تُرعبني.

سأنتظر الصّباح، الآن عليّ أن أتابع السير الخفيف، خطوي سريع رشيق، شيءٌ ما طريفٌ يسترعي انتباهي، أتوقف لحظة أتأمل، لحظات، أسير، أسلكُ طريقاً حافلاً بالحياة، لا يشبه حياتي الأخرى، في المقلب الآخر. لا أريد أن أتوقف.

أحبّ شعور الذّوبان في ذاتي، كلّ شيء في داخلها يتفكك، ينحلّ، يتحرّر قلبي قليلاً من ألمه، أربت عليه، أحثّ خطاي أكثر، قدماي تهرولان، جسدي تزداد خفته ورهافته، أؤمن بنحافتي فجأة، أخاف من اندفاعي قليلاً، لكنّ الفرح يبدأ يغزو نفسي المتعبة، هرولتي تتحوّل ركضاً، مقاهي الحياة تتوالى أمام ناظري، الرّكض يحفّزني، ينعشني، هواء الليل النّاعم يتغلغل في خياشيمي، في رئتي، في صدري، يتغلغل حتى في أصابع قدميَّ.

[6]

العاشرة صباحاً، ينزلق جسدي في المياه، برودة مرعبة تسري في جسدي، عضلات ساقيّ مازالت متصلّبة من هرولة الليلة الفائتة، بقيت أسير وأركض حتى الثانية عشرة ليلاً.

راقبت السّفن والناس في هذه المدينة الجميلة، تأملت الوجوه والأجساد التي لوحتها أشعة الشمس، بعضها بدا كالفرّوج المحمّر، يعبّ أصحابها الشمس بنهم، يختزنون قسطاً يحفظونه لبلاد باردة يعودون إليها.

عدت على المارينا مجرّد صبيّة فتية مغسولة بالنّشاط وبالاندفاع، أعدو بين الجموع التي لم تكن تعبأ بي، محصول الحداثة الأهم، بشرٌ تقوقعوا على ذواتهم، اهتمامنا افتراضي، تواصلنا افتراضي، وربّما بات وجودنا فيما بعد كذلك.

نُمت بعمق البارحة، تصالحت مع جسدي الذي تمرّد عليّ طويلاً في الآونة الأخيرة، أحّ المياه باردة للغاية، رغم الأشعة التي تتلألأ عليها، تغمرني مياه زرقاء صافية نظيفة، من خلالها ألمح الأسماك الصّغيرة التي تحاول الاقتراب بنعومة من قدميّ، المياه شفافة بلوريّة، الحمد لله أنّ أجساد البشر ورؤوسهم ليست كذلك، كارثة فعلية لو كانت، جسدي يكاد يتجمّد، المياه في بحر بلادي أكثر دفئاً ونعومة، لكنها قذرة، في الآونة الأخيرة راحت أكياس النفايات والفضلات تطفو على السطح، بتُّ أنفرُ من السباحة فيها، أفكِّر بأنّ كلّ قذاراتنا قد طفت على السطح، ما عدنا نسعى لإخفاء شيء، مات حياؤنا، أحرّك ذراعيَّ بقوّة، قدماي تضربان المياه، يتخلصان من ثقلهما بالتدريج، أندفع تماماً إلى الأمام، خفتي تصبح واقعاً مهيمناً، أتقدّم ببطء، لكن بثبات، أشقّ المياه، أستعذب البرودة، تستحيل انتعاشاً مع حركة جسدي وتقدّمه، أشقّ المياه كما شققتُ طريق حياتي مع حيّان بإصرار وبتصميم، اكتشفت فيما بعد حماقتي، سخفٌ لا معنى له كان ذاك الإصرار، تقضي حياتك تتناول دواء معتقداً بقدرته على شفائك، بعد ذلك تؤمن أنّه سبب علتك، يداي تضربان المياه المتدفقة بقوة كأنما أضرب كلّ الماضي الذي كان، أبعده من أمامي، أتقدّم لا أدري إلى أين، أصل إلى الحدّ الفاصل، لكنني لا أتوقف.

يندفع رأسي داخل المياه وخارجها، ومعه تندفع صورة نادية إلى رأسي بقوّة، أتذكر سباقنا في مياه الحمام العسكري، في مسبح السّاندزروك في منطقة الرّميلة، نادية تضحك بعذوبة، أسنانها اللؤلؤية تتراقص، أقول لها:

ـ أجمل ما فيك ابتسامتك، اضحكي.

ترميني بكميات متتالية من المياه، نضحك من قلبينا.

الحمقاء رفضت أن تأتي معي، الحمقاء التي لا تملّ الانتظار.

أغضب منها كثيراً، أشتمها، ألعن سلبيتها.

وانتظارها الغبي ليحيى، تنتظره منذ عشرين سنة، تؤمن بعودته من كندا ليتزوجها، ويجعلها عروسه؟؟ ترفض أن تصدّق ما قاله أخوه عماد من أن يحيى خلص:

ـ قد تزوّج هناك صبيّة من الجنوب، صحيح أنها مطلقة، لكن لا أولاد عندها، ومعها الجنسية، تعرف هذه مسألة هامّة، والدّنيا في نهاية الأمر قدرٌ ونصيب، نصيبه في غير منزلكم.

لا تصدّق الحكاية، ولا تصدّق أن نصيبه في غير منزلهم الذي استضافه أيّاماً وليالي، يأكل ويشرب وينام على ذراعيها بدعوى أنّها زوجته؛

ـ أنت زوجتي أمام الله والناس أجمعين.

لا تصغي جيّداً لوالدها لا تعود تسمعه، هو لم يحبّ يحيى منذ البداية، لم يستطع أن يحبّه مذ رآه، لم يستملح عينيه الزرقاوين، قال إن فيهما خبثاً لا يخفى على عاقل.

ـ فيهما غشّ، لا يلائمنا، ليس من طينتنا.

وهي تذوب من نظرة عينيه الزّرقاوين، تعشق التراب الذي يسير عليه، وتقبّل يديه في كلّ مرّة يضمّها بين ذراعيه لا تصدّق ما يحصل إذ يتقدّم لخطبتها، تقول لي:

ـ اقرصيني، لا أصدق.

تقف، وتزغرد طويلاً بين زميلاتها في المدرسة، تحمل لهن الحلوى ثلاثة أيام متواصلة.

بعد الحادثة أصابتها الحمى، ودخلت المستشفى، بقيت أسبوعاً، خرجت ذاهلة، كلّ شيء يضحكها، كلّ شيء يبكيها.

في ساعات الفراغ، تبقى تنظر إلى الكلمات بين السّطور، قلمها لا يتحرّك، أتركها حيناً، ربع ساعة، نصف ساعة، قلمها جامد، وبصرها يحدّق في الفراغ، أقترب منها، يدي تربّت كتفها برقة:

ـ ها، أين أصبحت؟

ـ لو يأتي فقط، أسأله أما كان ذاك حقيقيّاً؟

أحتضنها خفيفاً:

ـ تعالي نشرب القهوة.

ـ كان يحبّها مُرّة.

أقول، والحنق يخنقني:

ـ طظّ، انهضي، تجلسين كالبلهاء، يه، ما بك؟

تدمع عيناها، أشفق من قسوتي، أقول لها:

ـ لا رجل في الدنيا يستحقّ دمعة.

ـ أنظروا من يتكلم.

خدرٌ في عضلات جسدي، أنقلب على ظهري، أستردّ أنفاسي، أنظرُ السّماء الصّافية، صدري يعلو ويهبط لكن باستكانة، خدر السّباحة اللذيذ يتمدد في كلّ عضلاتي، ذراعي، ساقيّ، ظهري، عنقي، السّباحة رياضة عظيمة. مَسام جلدي تتراخى، تتفتح، تشتدّ، أستطعم جسدي، يختلفُ مذاقه بعد هذه السّباحة المتواصلة.

من عام تغيّرت نادية باتت ترفض السباحة معي، وترفض ارتداء المايوه.

[7]

كنتُ قد شارفتُ على إنهاء عشائي حين اقتربتْ من طاولتي؛ لا تحمل صحناً في يدها:

ـ بإمكاني مشاركتك الجلسة؟

أبتسم لها:

ـ طبعاً، تفضّلي.

ـ مظبوط إذاً، أنتِ لبنانية؟!

ـ نعم، أنا كذلك.

سحبت الكرسي بقوّة، ألقت بثقلها عليه، وجهها احتلَّ الجلسة وحاصرني.

ـ محسوبتك تريز، لا يمكن لعيني أن تخطئ أعرفُ ذلك.

منذُ لمحتك قلت لجوزيف إنّها لبنانية، عيني لا تخطئ أبداً، أعرفُ اللبنانيين من بين ملايين البشر، جماعة class وحلوين متلك، بسّ مضى عليك يومان وأنت تجلسين وحدَك في هذه الزاوية، كأنك معاقبة، هل تُعاقبين نَفسك؟

لا، لا تفعلين، أنت وحدك ههنا؟... وتلبسين الأسود، منذ رأيتك، لائق عليك، كنت تلبسينه أليس كذلك؟ أرملة طازجة، هاهاها، عفواً، أقصد هل فقدت زوجك حديثاً؟ لا، الحمد لله، لا ليس زوجك، لكنك في فترة حداد؟ أجل، أجل، هذا واضح، وجهك يبدو class لكنه حزين، حزين رغم أنك تبتسمين لي الآن، أبوك؟ أمك؟ لا، إنّه أخوك. موجِع، إنّه موتٌ موجع، صغيرٌ أم كبير؟ في الثامنة والأربعين، يا حرام، شبّ. أين مات في لبنان؟ أين تقولين؟ في أميركا، نيّاله، كان يعيش هناك. يا ليتني أموت في أميركا، أكيد الموت هناك له نكهة أخرى، ولكن ما لنا ولحديث الموت؟ أنا انتقلت إلى طاولتك لنتسلى قليلاً، لا لنحزن ونغتمّ. جوزيف، يقبر قلبي، يحبّ لعب طاولة النرد، وجد أحمق مثله يشاركه هذه الهواية، لا أطيقها بصراحة، يقرقع صوت أحجارها في رأسي، لكنني أحترمُها، أحترمها كثيراً لأنها تريحني منه بين فترةٍ وأخرى، الرجال لا يُطاقون أحياناً، يجب أن نرتاح. نحن النساء، منهم قليلاً، لِمَ لانزال نجلس هنا؟

نسيت، قلتُ في نفسي اخرجي معها إلى الحديقة الجميلة، تغيير جوّ، نجلس هناك، انظري تلك الطاولة فارغة من الزبائن، تعالي تعالي، سنتسلى، لكن علينا أن نحمل معنا صحني Dessert هناك، ترين تلك الطاولة المستطيلة، عليها أنواع حلويات هائلة، يعجبني هذا الأوتيل، ماذا لا تحبين الحلوى؟ تفضلين الفاكهة؟ لا بأس، خذي راحتك، أنا أفضّل الحلوى، يايّ كم أحبّ Tarte والقطايف Tiramisu ، وما هذا كاتو؟ أحبّه كذلك، وقطعة صغيرة من Cheese cake ، عال عال، اخترتِ فاكهتك، لا، لا، لم تعجبيني أبداً، لا تأكلين بشهية، فقط تفاحة وخصلة عنب؟ تخافين من البدانة؟ زوجك يحبّك نحيلة؟ على كلّ اسم الله عليك نحيلة أم سمينة، أنت جميلة. ها ما رأيك بالجلسة ههنا؟ أليست أفضل من جلستك الأولى؟ بلى، أكيد، أكيد، وجهك الآن أكثر إشراقاً، لم تقولي بعد أنت هنا تستجمين ها؟... نعم، نعم براحتك، وأنا كذلك، أحبّ المرأة التي تدلل نفسها،

لكنني كذلك أعمل، لا أكتفي بالاستجمام I’m a business woman عندي محلّ للملابس الجاهزة، مرَّ عليَّ أسبوع وأنا أنتقل من محل إلى محلّ كان يجب أن أقصد استانبول، هناك محلات الجملة واللقطات، لكنني قلت نقصد مارماريس أضرب عصفورين بحجر واحد. ماذا؟ لا، لا، أشتريها جميعاً من هنا، هذه البضاعة لها زبائنها، أشتري كمّاً منها في الـ Sale لزبائن بأعينهم، وأشتري البعض الآخر من مصانع في بيروت، والضاحية، تعرفينها، هناك اليد العاملة رخيصة، وكل شيء رخيص، وفي هناك ناس لا بأس بهم، أجل، لا بأس بهم، بعضهم أصحابي، على كلّ وهذا سرّ لا أقوله لأيّ كان نحن من يقوم فيما بعد بإلصاق mark عليها، واحدة تركية، واحدة مغربية وأحياناً أقول إيطالية، وذلك للبضاعة النّظيفة، في طبعاً، نعم، نعم، لا تستغربي، ونحن نراعي بذلك نفسيات زبائننا حبيبتي، أنت تعرفين طبعاً أن اللبنانيين يموتون بالماركات، غرامهم في الواقع، يحبّون كلّ ما هو أجنبي، كلّ فرنجي عندهم برنجي، هاهاها، يرتاحون كذلك، وأنا أريد إراحتهم. عن ماذا تسألين؟ تسألين عن محلّي؟ متى فتحته؟ لا، ليس منذ زمن بعيد، منذ عشر سنوات فقط نعم، نعم في منطقة الأشرفية، ما بدّو مين يقلك، ماذا كنت أعمل قبل ذلك، كنت معلّمة، أعلِّم الفرنسية في مدرسة خاصّة، أُعلِّم الأولاد الصِّغار، يعني المرحلة الابتدائية: وجع قلب ووجع رقبة وراس ومفاصل، واللي بيعجبك، وفوق ذلك أتقاضى راتباً سخيفاً، لا يكفيني حتى منتصف الشّهر، ما كلّه غالي ببلدنا، حبيبتي، كلّه غالي إلّا البني آدم رخيص، بلد للسَّارقين والحرامية، وليس للأوادم، الآدمي بياكلها بالعتيقة، أكيد، أكيد، التجارة أفضل من التعليم، يه، طبعاً، هذا سؤال يُسأل حبيبتي؟ ولو، كلك نظر. ما في نسبة، التعليم مهنة بائرة، ها أنت كذلك معلّمة، كنتِ؟ لا يبدو عليك، لا أعرف، لكن لا يبدو عليك، المهم، التجارة أفضل صدقيني، مليون بالمية، أصلاً نحنا بلد تجارة وخدمات، بالدم يعني، واسألي من تريدين، واقرأي التاريخ والجغرافيا كذلك، على فكرة أنا أحبّ التاريخ، تسليني قراءته، ولاسيما قراءة الأمجاد، وبلدنا حافل بها، اسأليني، الآن لم أعد أقرأ شيئاً، اكتفيت، فقط بتّ أقرأ الأقمشة والأسعار، وعيون البشر. تعرفين العيون هي السرّ وهي المفتاح. من عيني الزبونة أعرف إن كانت ستشتري، أم أنّها تحاول تفحّص البضاعة فقط، ومن رقصة أجفانها أدرك إذا ناسبها السّعر، أم وجدته مرتفعاً، ومتى لاحظت أنّها مليانة وجلدها يحتمل أسلخها عندها بالسّعر، وأسلخ جلدها، وجلد اللّي خلفوها، لا، لا مش حرام هذه تجارة وشطارة.

أصلاً مثل هذه لا تعمل، وحياتك لا تعمل، لكانت قدّرت قيمة القرش، هذه يكون لديها ذكر فحل، يده طويلة، ويمكن كلّ شيء يكون فيه طويلاً، هاهاها، يسرق من الناس ويعطيها، ويريدها أن تملأ عينيه من النعمة التي يغدقها عليها، يطلب منها أن تشتري أحلى ما تجد، وأغلى ما تجد، أو ربّما تكون هي صاحبة الفذلكة، هل تصدقين يا حبيبتي أنّ بعضهنّ مهما رفعت السّعر، تبقى تحاور وتناور لتشتري أغلى ما في المحل، قطعة لا أختَ لها، عقدة، لا تريد لغيرها أن تلبس مثلها، حالة نفسية؟ لا تضحكي، لكن تعرفين وجهك أحلى هكذا، أجل، أجل، اضحكي ما بدا لك، شغلني الحديث معك، لم آكل شيئاً بعد، هَمْ، الـ tarte رائع، لا تحبينه، مسكينة أهمّ متع الدّنيا، الطّعام اللذيذ، ليس متعتك الأولى؟ ماذا الجنس؟ كمان لأ، كاذبة فعلاً، ما الذي يمتعك إذاً؟ تعودين إلى الضحك، انظري أنا شخصيّاً أحبّ هاتين المتعتين رغم أنّ جوزيف بات كالثور في الفراش ينخر على الفاضي والمليان، يعني نحن ستات ونفهم بعضنا، لكنْ لا بأس الأولاد يسدّون الفراغ، آه لا أولاد عندك؟ زعَّلتيني. ماذا تقولين، لا ليست آخر الدّنيا، أيْ نعم هم «زينة الحياة الدّنيا»، وهذه العبارة ترددها عندي دائماً زبونة منهم، تشتري ملابسها وملابس ابنتها من عندي، يعني بعضهم بيفهم كمان، لكن الحياة بدونهم تمشي كذلك، أعني الأولاد، أيضاً بدون أولئك تفهمين قصدي طبعاً،

تبدين ذكية، هو هذا وهذا، نعم نعم القلب والعقل، هما يصنعان كلَّ شيء: الحزن والسّعادة، الفرح والألم، لا تتكلمين كثيراً، لا تحبيّن الثرثرة، أنا لا أتكلم كثيراً عادة، لكنني أحببتك بمجرّد أن رأيتك، قلت لجوزيف سأتحرّش بها، لم أردّ عليه طبعاً، هو يحبّ أن يبقى في حاله، غشيم، الجنة من دون ناس ما بتنداس.

أنا أحبّ الناس كثيراً، ربّما هي مهنتي، لكن لا أنا أحبّ الناس، سآخذ رقم تلفونك، وأعطيك رقم تلفوني، ونلتقي في بيروت دائماً، وتشترين كلّ ما تريدين من عندي، أحلى بضاعة والله، لم تقولي لي كيف مات أخوك، تس لا تريدين فتح الموضوع، لا بأس أعتذر، وزوجك لِمَ لم يرافقك، تريدين الانفراد بذاتك؟ بيصير، أفضل من وقت لآخر ضروري، الزواج بلفة، بوزك ببوزه كلّ الوقت، اسأليني أنا خصوصاً بعد أن يطير الأبناء، أنت أصغر مني، أعلم يبدو عليك، في الثامنة والثلاثين أو في الأربعين، نعم، نعم أصبتُ مجدداً، لكنك ما شاء الله العَذْرا تحميكِ. ماذا أقول؟ جميلة الأعمى يرى ذلك، وجسمك لبّيس، أنتِ مُرّي على المحلّ وسترين كيف أجعلك Style ، قطعة غير شكل. ماذا زبائني؟ أكيد، أكيد هم منوّعون، من كلّ الطوائف بتشوفي عندي موارنة ومسلمين ودروز، الثياب ليس لها هوية، مهنتي عابرة للطوائف والحواجز والمناطق هاهاها، وأنا ألاطف الجميع، طبعاً لا أحبّ الجميع، قلبي لا يتحمّل، لكنني ألاطفهم طالما يشترون، المهم هو البيع، أبيع كثيراً وحياتك، حتّى لو ربحت قليلاً أحياناً، لكن الحركة بركة، أفضل من لا شيء هكذا يشتهر محلّي، يقصدونني من كلّ مكان، خصوصاً من هناك من الناحية الأخرى، بات معهم أموال ها، تغيّرت الأحوال، أموال كثيرة لكنهم يبقون بحاجة إلينا، الذوق عندنا حبيبتي، والترتيب لنا، أصلاً هم يعترفون بهذا الأمر، ليس سرّاً يعني، هذه الحالة مؤقتة وحياة عينيك، كله بعدين بيرجع لأصله، بعدين صدقيني، هذه حالة مؤقتة، أنت تضحكين يا عزيزتي لأنك تضعين حدوداً حاسمة بينك وبين التاريخ، وهذا خطأ فادح يا صديقتي، ماذا أقول؟ نعم، هذه حالة مؤقتة، الحاصل غير طبيعي بالمرّة، يه طوشتلك رأسك، ألستِ مزعوجة، بتعرفي أنك مهضومة، يلّا نحن نتسلى، نقطع الوقت قبل أن يقطعنا، هاتفك يرنّ، لديك اتصال، لا، لا خذي راحتك، من يتصل بك في هذا الوقت المتأخر؟ أكيد زوجك، يفتقدك، سريره بارد بدونك هاهاها، يقطعني، لن أتكلّم بعد الآن، لا، لا أنهي مكالمتك، أنت قليلة الكلام، إنّها ابنة أختك نيرمين تطمئن عليك، ليس زوجك إذاً؟ تحبيّنها كابنتك تماماً، في الثانية والعشرين، أحلى عمر، نعم، هه صحافية، حلو، شغلة حلوة، بسّ على الفاضي، كلّه كلام، لا يقدّم ولا يؤخر، لو كان الكلام يؤثِّر، لكنّا في غير حال، لكنهم يكتبون شيئاً ويفعلون أشياء أخرى، شعبٌ كذاب وحكام أكذب منهم، طوشتلك راسك، بتحبّي نقوم نمشي شوي يا، يا تفضلي، تفضلي، بقوم عَ مهلي يا عدرا، ها، لم تقولي لي بعد ما اسمك؟ ها، لم أسمع ماذا قلتِ؟ فاطمة، حقاً؟ مش مبيّن عليك أنك فاطمة، لا، لا ما تواخذيني، مش قادرة قوم امشي، يمكن من كثرة الكلام الذي بصقته، سامحيني، بدي شوف جوزيف وين صار، أقلق عليه حين يطول الوقت الفاصل بيننا، يقبر قلبي، ليس له غيري في هذه الأرض، وأنا ليس لي غيره، وأنت فاطمة، وتبدين نعسانة بتعرفي: تغيّر وجهك، ذَبُلَ، يلّا ارتاحي اليوم، لا لا لم يعد وجهك مشرقاً بالمرّة كما رأيته من قبل، ارتاحي اليوم وبكره بشوفك، انبسطت بسهرتك، يلّا Bonne nuit ، وما تواخذيني حبيبتي طوشتلك راسك.

[8]

أتمدد على الكرسي الطويل على الشّاطئ، أعرّض جسدي لأشعة الشّمس تلوّحه، السّاعة السّابعة مساءً، بعضهم يبتسم لي حين يراني أفعل، خصوصاً أولئك الذين يفضّلون أشعة الشمس حارقة لاسعة تحمّر الظهور والصّدور والأفخاذ، وكلّ ما تطاله بألسنتها، أهرب منها حينذاك، أحبّ أن أستقبل أشعتها عند هذا الوقت، وهي تقترب بلطافة من المغيب، تلامس جسدي برقّة وبنعومة، آثارها تبدو خفيفة، لكن جذابة أحبّها، أضع النظارات الشّمسية على عينيّ، أحدّق بهذا البحر الشّاسع العظيم، وبلونه الأزرق الدّاكن الذي يخلب لبيّ كلّما نظرته، أراقب السّقوط الدراماتيكي للشّمس في البحر، أراقبها بدقّة في انحدارها نحو المغيب، أفكِّر بالحياة التي تعطي وتأخذ بلا انقطاع، أتذكر بشراً كثراً أعرفهم كانت حياتهم قوية ساطعة كما تكون الشمس عند انتصاف النهار، ليغيبوا فيما بعد ويسقطوا في هوّة ما أدرك أنسيٌّ بعد سرّها، أتذكّر في انفرادي مسعود، أخي الوحيد الذي أحببته دائماً قبل سفره، أحببته ربّما لتواضعه، ربّما لأني أحسست دائماً أنه بحاجة إليّ، وأحببته أكثر حين زرته العام الماضي في بيته، حيث كان يقيم في أرض الأموال والأحلام التي لا تسقط أبداً، مسعود هادئ هناك، مستكين يقيم منذ خمسة وعشرين سنة، يخبرني وأخواتي أنّه مرتاح جدّاً في البلاد الأميركية، وأنّه يتمنّى دائماً لو نتمكن نحن جميعاً من العيش معه هناك، ومن التعرّف إلى أسرته وحياته.

Skype يخبرني مسعود، وهو يحادثنا عبر السّكايب أنّه سعيدٌ في عمله ويبدي لنا وجهاً سعيداً طافحاً بالابتسام، يخبرنا أن عمله في مصنع السيارات المتطور رائع يدرّ عليه أموالاً، يحمد ربّه عليها، وأنّه يحسّ من خلال عمله هناك أنّه يساهم في تطور العالم، وأنّ كلّ شحنة سيارات تخرج من ذلك المصنع العظيم، تجعله يشعر بأنّه بطريقة أو بأخرى، يعني أنه أبوها، وأنّ له يداً جُلّى عليها، صعقتني رؤية مسعود هذا حين التقينا عن قرب، بدا لي هزيلاً مصفرّاً يسلّم عليّ بخجل حين التقاني، ويعرّفني على أسرته بتردد، سيلين زوجته المرتفعة ذات الأكتاف الطويلة العريضة، أجناس وأعراق بشرية عديدة تلاقحت وتناسلت فأنجبتها بعد قرون، ربتت على كتفي بمودّة كادت تهزّ قدميّ، بمجرد أن لمحتها فهمت سبب صفرة أخي وهزاله، الابنة شارلي اكتفت بمصافحتي بسرعة، ثم اختفت في غرفتها، أما ولداه الصبيان، ابنا الأخ الوحيد لديّ، الذكر الوحيد الذي تبقى لي ولأخواتي البنات من أسرة والدي، وبقيت زمناً أوقن أنه سند ظهري المرتقب، فهما نيك وجون، اكتفيا بهزّ رأسيهما بالتحية، والوالد يعرّفهما إليّ، العمّة التي تأتي من بلادها البعيدة، وتسافر في الطائرة مدة ثلاث عشرة ساعة حتى تراهما، وتتحمل تشنج عمودها الفقريّ وكلّ عضلة من عضلات ساقيها الجميلتين؛ حرّكا يديهما كيفما اتفق، ثم انطلقا لبعض شأنهما، غابا ساعات، وساعات لألتقي بهما بعد ذلك صدفة، يقولان هاي، ويهرولان بسرعة من أمامي، كأنّ بي ما يُعدي، أمّا القبضتان الحديديتان اللتان أجادتا الإمساك بي هناك فقد كانتا للعملاقة سيلين، تفرّغت لي أحياناً لتقودَني بيديها القويتين داخل المنزل، وأحياناً خارجه، تصطحبني في بعض الأوقات إلى الحدائق العامة، وفي أوقاتٍ أخرى تعدُو بي إلى المولات لتشتري في غالب الأحيان كميات هائلة من الأطعمة المعلبة والطازجة والمشروبات الروحية والغازية، وأحياناً قليلة تصطحبني إلى محال الثياب بدعوى أنها تريد إرسال بعض الملابس لأخواتي كما أوصاها مسعود، فإذا بها تتلهّى

بالبحث عن المقاسات الكبيرة التي تلائمها، وتتركني أنا أحاسب وأدفع ثمن المشتريات التي أكون قد انتقيتها لأخواتي، على اعتبار أني أعرفهن أكثر منها مقاساً ومذاقاً للألبسة.

وحين أعلنت لمسعود أني أرغب برؤيته على انفراد، وبقضاء بعض الوقت معه، وحدنا دون شريك من شركائه الجدد، ضحك بطيبته المعهودة، وقال لي:

ـ حسناً، غداً تذهبين معي إلى الشركة الكبيرة، المصنع الكبير.

في اليوم الثاني قصدت مع أخي المصنع، مصنع السيارات الذي وجدته هائلاً في ضخامته، وفي اتساعه، هائلاً بمشهد السيارات الكثيرة المتوقفة في أنحاء منه، هذا الإحساس بالضخامة والفخامة استحال بسرعة مخيفة إلى شعور مُخزٍ بالضآلة، ومسعود يستوقفني ممسكاً يدي مشيراً إلى نقطة معينة توقف عندها قائلاً لي بابتسام:

ـ هنا،

ونظرت الصفّ الطويل....

صفّ طويل، طويل، طويل... لم أستطع رؤية آخره، صف هو أشبه بطريق رفيع قليل العرض، قد جُعلت قواطع معدنية عليها آثار أصابع كثيرة بين مسافات متساوية منه، وأمام المسافة بين القاطع والآخر، يقف موظّف هزيل كمسعود، في نفس قامته المتوسطة أو أكثر ارتفاعاً منه، مشابهٌ له في صفرته، وفي شحوب وجهه ليقوم بعمل محدد بسيط، لا يتغيّر، يكرره طوال سنوات، طوال النهار، طوال النهارات، طوال الأشهر، طوال الأسابيع كما أخبرني أخي.

جلست طوال الفترة الصّباحية هناك إلى جوار مسعود، أرقب أصابعه الدّقيقة وهي تقوم بعملها، أرقب قسمات وجهه القانع المرتاح، وهو يحادثني بين فترة وأخرى، وعينه لا تغادر ما بين يديه، بقيت حتى استراحة الغداء عند الواحدة ظهراً، تولّى مسعود إعادتي إلى المنزل، وقد كاد رأسي ينفجر بعدما راقبت أخي حوالى خمس ساعات، وهو يتفحص نوعاً واحداً محدداً من البراغي ـ أيْ واللّه من البراغي فقط ـ الجيّدة منها يضعها في علبة خضراء، لاحظوا اللون، وغير المستوية يضعها في علبة حمراء، أيْ واللّه، تنتقل العلبة بعدها إلى الموظف التالي: الخضراء للاستعمال والأخرى للتسوية. هذا هو عمل مسعود الذي قضى عمره في بلاد التطور والحداثة والتكنولوجيا، يقوم به بإخلاص ودأب وصمت طوال خمسة وعشرين سنة!! يفرز البراغي الجيّدة منها، ويبعدها عن تلك التي لا يُحسن استعمالها، لأنّ صنعها غير متقن، ويرعى أسرته الرّباعية الامتداد، ويقدّم الأموال البسيطة التي يجنيها إلى سيلين لتتولى هي إدارتها، وإنفاقها على الأطعمة التي تضمن استمرارها وتناميها بالدّرجة الأولى وتؤمن لها مزيداً من الازدهار. سألني مسعود قبل أن أنزل من السّيارة الجيب، بعد أن أعادني إلى المنزل:

ـ ها ما رأيك بهذه الصّبحية؟

وجهه يضيء بابتسامة طيّبة، أو ربّما بلهاء.

أجيبه، وأنا أشيح بوجهي:

ـ رائعة.

أذكر أنيّ حلمت ليلاً، ليل ذلك النهار الذي زرتُ فيه مصنع مسعود، أو ما يعتبره مصنعه، حلمت أني تحوّلت برغياً أخضر اللون، حمله مسعود في يده متثاقلاً ثمّ ثبته، وراح يدقّه بمطرقة حديديّة، يدقّه ويدقّه، ليحشره حشراً في لوح حديديّ ضخم، والبرغي لا ينغرز مقدار شعرة، ومسعود يوالي طرقه على رأس البرغي، رأسي، الذي شعرت به يتحطّم وينزّ ألماً وصراخاً أرعن، صراخاً استيقظت معه مذعورة، أنفاسي تتلاحق كأني أعدو أميالاً، وقد قرّرت في منتصف الليل أنيّ سأسرّع العودة إلى بلادي، وقد استسغتُ عندها طرق حيّان الذي كنت قد هربت منه، بدا لي أخفّ وطأة، وأكثر رحمة من المطرقة الحديديّة الأميركية.

حاول مسعود أن يثنيني عن عزمي، وأن يرّغبني بالبقاء هناك، والحصول على الـ «غرين كارت»، وبعدها على الجنسية وبعدها... لكنني عزفت عن كلّ ذلك، وأحسست بشوق عارم إلى لبنان الذي غادرته، وأنا ألعن كلّ ما فيه، وكلّ من فيه، وكلّ ما يجري على أرضه من مهازل.

أتذكر مسعود بطيبته وبحياده، وبسقوطه الهادئ بلا ضجيج، تماماً كما تسقط هذه الشّمس الآن بخفّة متناهية خلف بحر لا ندري ما بعده، لتسقط ويسقط معها في سواد لا ندرك كنهه.

الزّهوة التي تخلّفها أشعة الشمس الغاربة تنكمش بتوالٍ، جسدي يغادره دفء الشّمس لتلفّه برودة خفيفة، ما أدري إن كانت برودة الطقس خارجاً، أم هو صقيع الذكرى، لا لم تكن حياة مسعود مشعّة قوية، كما حاول أن يصوّرها لنا، وهو يهاتفنا من بعيد، لكنّ ألم غيابه هو القويّ في داخلي، يترك فيه لوناً مختلفاً، تماماً كهذا اللون الذي يكتسبه جلدي وأنا أعرّضه لأشّعة الشّمس، هادئ لكنه مختلف ليس لوني الأصيل الذي أعرفه.

[9]

إنّه اليوم الخامس لي في مارماريس...

أفكِّر بأنه ما كان عليّ أن أحضر بمفردي إلى هذا المكان، الحياة ههنا تتلاقى، وتتلاقح، وتتوالد أفراحاً وضحكاً ونكاتاً وجلسات.

لا مكان في هذه المدينة للتوحّد والانفراد. كان يجب أن أصطحب معي نادية، نيرمين أو جمانة أو أيّ مخلوق آخر.

تتوالى الرّسائل عبر المحمول، نادية تكادُ تخبرني بكلّ تفاصيل نهارها:

ـ الآن تتناول الغداء.

ـ عند الخامسة ستلتقي نهى وسعاد وجمانة، وصديقات جديدات.

ـ منذ ساعة بدأت الحفريات أمام منزلي.

ـ أشاهد الآن مسلسل باب إدريس.

ـ أستمع إلى رامي عيّاش الآن، الفيديو الأخير له تعقيد.

لا تكاد تنسى تفصيلاً، أضحك، ولا ألزم نفسي بالردّ على كلّ رسائلها.

نيرمين تفعل الشيء عينه، لكنها ترفق رسائلها القصيرة بلهفة لا تخفى، تتصرّف كابنة بارّة تخاف على أمّها.

ـ انتبهي لنفسك.

ـ كُلي جيّداً.

ـ لا ترهقي أنفاسك بالسِّباحة، أعرف أنّ نفسك قصير...

تُشعرني دائماً بأنّها تخاف عليّ ربّما لأنّها الوحيدة التي لازمتني في كلّ تفاصيل مرضي وعلاجي، وعاينت نوبات جنوني وشفائي وقبل ذلك انهياري.

اليوم سأستحمّ على الطريقة التركية ـ حمام تركي ـ قلت لنادية ذلك على سبيل التفكّه، لكنني بعد وقت وجدت الفكرة تروقني، فرصة أن أمارس ما أسمع عنه.

ـ أجل، ولِمَ لا؟

قصدت صالة Spa ، اتفقت على موعد مع الصبيّة التي سترافقني إلى نعيم الحمام التركي.

كنت أسخر بيني وبين نفسي من الفكرة، لكنني بعد وقت استَجَدْتُها. الحمام متسعٌ نظيف لطيف الجوّ، قبّته عالية فيها دوائر صغيرة من الزجاج الملوّن، الإضاءة فيه خافتة، سهّلت عليّ التخلّي عن ملابسي، أبقيت على قطعة داخلية واحدة، ثمّ طلبت مني تلك الصّبية الاستلقاء على الرّخامة المتسعة البيضاء، بعدها راحت تصبّ المياه الدّافئة على جسدي، تصبّ المياه بكميّات كبيرة متتالية

بنشاط وبهمّة كأنّها تنجز مهمة رسمية، ثم راحت تغطيني بكميّات من رغوة الصابون النّاعمة الهشّة، رغوة بيضاء كثيفة نفّاذة الرّائحة، تنزلق على جسدي بنعومة ما بعدها. يعود إليّ إحساس الطفولة من جديد، تدعكني يداها المرّة تلو المرّة، ثمّ تعود تغطيني بالرّغوة الهشّة الثّلجية، وتدعك من جديد.

جسدي يتراخى ويتمدد، يستطعم الدّفء واللدانة، ويستمرئ المياه النظيفة الدفّاقة تدفّق الحياة في عروقي، رغم محاولات حيّان، أعترف لذاتي بأنّ استمرار الصّراع حمقٌ ما بعدَه، ينزرع في ذاتي إحساسٌ متفاقم بقيمة الزمن، وبكيف نحياه.

ينتهي الحمام الدّافئ، أسترخي وأغمض عينيّ بعد أن ألتفّ بالمنشفة الكبيرة، أروح في إغفاءة لذيذة لطيفة، أريد أن يبقى دماغي مغفياً طوال الوقت.

حين عدتُ إلى غرفتي بعد حوالى السّاعتين كانت نادية قد بعثت برسالة جديدة.

ـ «أخبرتك أنّ الحفريات قد بدأت أمام منزلنا، وأنّ الغبار اليوم يعلو حتّى يبلغ عنان السّماء، وأنّنا بتنا نستنشق غباراً، لا هواءً فيه ذرات الأوكسجين، أخبرتك أنّهم استيقظوا الآن فجأة في وزارة الأشغال، ليكتشفوا أنّ بلدتنا الصّغيرة، البلدة التي كانت وادعة قليلة السّكان، والتي تكاد تنفجر اليوم بساكنيها، وبالعمران الهائل الذي راح يقضم كلّ جغرافيتها، أنّ هذه البلدة مازالت دون شبكة للصرف الصّحي، وأنّ عليهم أن ينفّذوا مشروع حفريات فرعونية لهذه الغاية بالذات، ويدفنوا بعد ذلك في تربتها وفي طرقاتها أنانيب وخراطيم بمواصفات العشرين سنة الماضية، نمشي دائماً إلى الوراء. إيّاك أن تحدّثيني أيتها السيدة الارستقراطية بعد الآن عن حيّان، تقولين إنه «مش ظابط» ما البلد كلّه مش ظابط، مسكين هذا الحيّان، على الأقلّ هو يجعلك تسافرين لتبتعدي قليلاً عن هذا الوحل. لا تقدرينه حقّ قدره، ضجيج الآلات يصمّ أذنيّ».

لم أجد في نفسي رغبة للردّ، قرأت ثمّ أطفأت الشّاشة، لا جديد في الكلام، مات الجديد هناك منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة، والأسطوانة عينها تتكرّر، فوضى ورذالة وامتهان، ما عاد شيء يدهشني، والغريب في الأمر كوننا قد اعتدنا ذلك، والأكثر غرابة كوننا قد بتّنا نتعامل مع غير الواقعيّ على أنّه الواقع الذي لا بديل عنه، تهافتٌ ما بعدَه.

سيصحبنا اليوم طوني في نزهة على القدمين إلى المارينا، تحديداً إلى السّاحة التي يتم فيها صنع السّجاد اليدويّ، متحمّسة أنا لتلك الزيارة.

قال: ننطلق عند التاسعة، بعد تناول العشاء. الفكرة تروقني، اختلاف.

السّاحة متسعةٌ فسيحة، أناسٌ ريفيّون يتوزّعون الأنحاء، بعضهم يجلس أمام أوعية نحاسيّة كبيرة، فيها ماء يغلي، يتصاعد بُخاره، يسقطون كميات من الصّوف الأبيض فيها، يبقونها وقتاً، بعدها يخرجونها بألوان مختلفة، أزرق، أخضر نبيذي غامق، بنيّ، عسلي... ثم ترفع وتوضع في مصافٍ كبيرة، وتترك لتجفّ مياهها.

البعض الآخر يغزل كميات من الصّوف الملون الجاف، يحيلها خيطاناً مستوية على مغزل كبير يلفّها ويرسم دوائر متكررة تغريني بالنظر إليها مراراً وتكراراً، تحضر الأقاصيص إلى رأسي وأنا أراهم يغزلون، أقاصيص من زمن الطفولة الطيب المستقرة في نخاعي الشوكي، ثمة مجموعة من النساء يتولين عملية النسج اليدوي، والحياكة على الخيطان الطويلة المشدودة إلى أُطر خشبية

كبيرة، مجموعات تقوم بنشر سجاد انتهت حياكته للتو، وأخرى تقوم بتعليق سجاجيد عجمية للعرض، تضعها على شرفات وطيئة تحيط بالسّاحة بشكل نصف دائري.

ورشةٌ حقيقية لإنتاج الجمال، الحياة تنبع من بين الأذرع والأصابع، أحببت هذا الإنتاج الجماعي للفن، وأحببت العبق المتصاعد من المكان.

الناس يتجمعون حول تلك المجموعات، وينفضّون بعضهم يسأل عن الأثمان، يجدها مرتفعة فينصرف، بعضهم ينظر ويدقق ويسأل طوني وسواه عن التفاصيل، يجيب عن بعض الأسئلة، يهمل أخرى لا يعرفها، ثمّة من كان مهتماً لمعرفة كلّ المراحل التي تمرّ بها هذه الحِرفة الجميلة، يقف أمام كلّ مجموعة يبصر، يلاحظ، يستفسر ويستحسن، أنا كنت اليوم واحدة من هؤلاء، أعجبني ما رأيت في هذه الساحة، قد أعود غداً إلى هنا بمفردي، وقد أشتري قطعاً صغيرة هدايا لأخواتي ولنادية ونيرمين وجومانة، قطعاً أعجبتني أحتفظ من خلالها بعبق المكان، للأماكن روائح تناديك، وبعضنا يحبّ النداء. تنكسرُ الأمكنة عندما تغيب عنها روائحها.

[10]

كان إرهاصاً ليس إلّا...

ربّما كانت رائحة كذلك، رائحة بعينها، تلك التي انبعثت من الصّندوق الذي حمل مسعوداً مجدّداً إلينا.

ما أدري كم كانت الساعة، هل كانت الثّامنة صباحاً، التّاسعة، العاشرة، هل كان في الدّنيا، أم كان في زمنٍ مقتطع من حياة أخرى؟ كلّ ما أدريه، وأوقن به أني أحسست بجسد ثقيل يقف إلى جواري، قريباً من أنفاسي، لا تسألوني لِمَ هو ثقيل هكذا، شعرتُ بوطأة ثقله، وقد وقف حاجباً الهواء عنيّ.

قلت: إني أحلم...

أنا المخلوقة المصنوعة، لولا قليلٍ، من حُلُم، لكنّ الهواء استمرّ ثقيلاً يلتفّ حولي، انسربت رائحة إلى أنفي أعرفها، أذكرها غصباً عني، رغم أني أحاول التهرب من التعرُّف إليها، نحن والحواس، هي تتحكم بنا، أم نحن من يتحكم بها، أنا من يُحرّك بصري، أم بصري هو من يقودني؟ ليس هذا الأمر مهماً الآن، لا أهمية له البتّة، المهم أن أتمكّن من فتح عينيّ المغلقتين بشدّة، أن أتمكن من إزاحة هذا الثقل الذي راح الآن يقترب مني أكثر. فتحتهما، ثمّ أغمضتهما، بعد ذلك انفتحتا دون أمر مني، كان ثمّة ما يلتمع أمامي بشدّة، هل هو رأس حيّان بصلعته اللماعة دائماً، وجهه المتورّد الملتمع، أسنانه البيضاء ـ التي قام بتبييضها أخيراً ـ القميص الأبيض النظيف، كان الضوء كثيفاً أمامي، الرائحة كثيفة، أغمضت عينيّ مجدداً، ربما غبت عن الوعي.

رأيت فيما يرى النائم نفسي وأخواتي، وقد تجمعن حول الصّندوق الذي حمل لنا مسعود.

صندوقٌ عاد به من غربته بعد سبعة أيّام من الانتظار الطويل الممض، بعد أن أبلغتنا أسرته بموته الفجائي، أتى بصحبة عرّابته السيّدة سيلين، أصرّت على مرافقته حتى مثواه الأخير، ابنة أصل طبعاً، تريد أن تطمئن على آخرته، كما حرسته في حياته، قالت، والدّمعة المعلّقة على جفنها لا تريد النزول.

سبعة أيام ننتظره وننتظرها، وهي تبعث بالرّسائل عبر محمولها:

ـ غداً تنتهي الأوراق.

ـ لا، لم تنتهِ الأوراق الرّسمية بعد لإخراج الجثة، نحتاج تصاريح إضافية.

ـ المعاملات معقدة ههنا Yes ، Yes ، معقّدة للغاية.

ـ الدّخول إلى هنا صعب، كذلك هو الخروج، ماذا تعتقدون؟ نزهة؟

وهي تحترم رغبتنا نحن البنات، نريدُ أن يُدفن مسعود بيننا، حُرمنا منه في الحياة الدّنيا، لعلنا بذلك نلتقي به في الآخرة، هي كذلك متديّنة، وتفهم هذا الضرب من التفكير، تحترمه، ولذلك ستأتي به، الأولاد؟ لا لن يرافقوا أباهم إلى بلاد المنشأ، اكتفوا من الرّحلة القصيرة التي رافقهم خلالها، يكفي،

بزيادة، هي تقوم الآن بالواجب، وترافق الصّندوق بحرصٍ ضنينٍ، تحرص على جثّة مسعود كما حرصت على جسده سابقاً، فاعتصرته عصراً، حتى جفّ، هكذا كنت أفكِّر مُذ انتهى إلينا خبر موته.

أقول لأخواتي:

ـ كيف مات هكذا فجأة؟ السّنة الماضية كان كالحصان حين تركته!

لكنني في قرارة ذاتي أدرك أنّه لم يكن بخير، أعوذ باللّه، لا، لم يكن حصاناً، وجهه كان شاحباً، جسده شاحب، وكلّ ما فيه كذلك، مجرّد ظلّ لما كان عليه قبل أن يغادرنا، ويقول إنه سعيد كان!

حين فُتح الصّندوق بعد وصوله، وبعد الهرج والمرج الذي اشتعل لحظة إنزاله، وصراخنا نحن البنات بشكل متوالٍ، سُمح لنا برؤيته، كانت اليدان مضمومتين متشابكتين حول شهادة ملفوفة، سحبتها سيلين بتؤدة، وراحت تقرأها باعتزاز كليّ، ووجهها ينضح بالفخار.

ـ إنّها شهادة تقدير من المصنع الكبير الذي كان يعمل فيه. يقدّرون إخلاصه وتفانيه طوال حياته القصيرة، يقدّرونه للغاية.

إلى جوار اليدين وُضعت علبتان صغيرتان، على اليمين علبة خضراء، وعلى اليسار علبة حمراء، عليهما كلتيهما شارة المصنع، اشتملت كل منها على برغي بالمواصفات المطلوبة تقديراً لشهامة الرجل، وعطاءاته.

فتحتهما الأرملة، امرأة أخي الوحيد، وأصرّت على أن نبصر ما بداخلهما، وانبعثت عندها رائحة حديدية غائمة، أغميَ عليّ بمجرّد رؤيتهما واستنشاقها، لم أتحمّل فكرة ملاحقتهما المرحوم حتى إلى تربته في لبنان، ولم يتقبل جهازي التنفسيّ تلك الرائحة الحديدية الملتبسة، فغَامَ وعيي.

لكن الحقّ يُقال إن سيلين هذه كانت شهمة للغاية، وافقت على كلّ مراسيم الدّفن الإسلامية، وحملت السّبحة تضامناً معنا أكثر من مرّة في الليالي التي تلت نهار الدّفن، والتي احتفلنا خلالها بذكرى المرحوم مسعود.

كان أكثر ما أثنت عليه من مظاهر الاهتمام الأسريّ، بالأخ المرحوم هو الموائد العامرة، تلك التي كانت تحضّر يومياً على الغداء وعند العشاء، تقدّم فيها أصناف الطعام اللبناني الشهي بتنوّعه وبمقبّلاته، هذا ولم تتوانَ المرأة عن إظهار احترامها الشديد لكلّ الأنواع اللذيذة التي قدّمت، ولا سيّما منها الأرز باللحم المحمّر، والتبولة الطّازجة والكبة النيئة، وقد أصرّت على تسجيل بعض الوصفات في فترات الاستراحة، حين تخفّ وطأة الزوار المعزّين خصوصاً بين الثالثة والرابعة عصراً.

قضيت أنا نصف فترة العزاء غائبة عن الوعي تقريباً، بعد أن شممت الرائحة، وفي كلّ مرّة تذكرت فيها مسعود، وضحكنا الخفيف المتواضع خلال تلك الزيارة التي كانت لي إلى أميركا العام الماضي.

أخواتي كنّ متأثرات، أختي الكُبرى علية والوسطى نُهاد، لكن أختي الثّالثة بدرية كانت أكثر تأثراً بنوعية المعزّين الذين يتوافدون، وبالسيارات الأنيقة التي تتوقف أمام ديارنا بين الفينة والأخرى،

لينزلقَ منها ذوو البزّات الفارهة، والعطور الفوّاحة والسّاعات الذهبيّة، وقد أتوا بكامل أهميتهم، وأناقتهم، والتماعهم لتقديم واجب العزاء.

وبما أني كنت الأقرب إلى قلب زوجته، زوجة أخي، على اعتبار زيارتي لها في بيتها، وبما أني كنت الأكثر انفعالاً وبكاءً يكاد يكون متواصلاً، فقد عنّ في بالها أني الأكثر ملاءمة لطرح الموضوع معي، الموضوع الأكثر حساسية في هذه الحالة، عنيت به الناحية المادية.

ـ الكلفة My Darling ، كلفة شحن أخيكم.

ـ تعرفين أنه كلفنّي مبلغ أربعة عشر ألف دولار عدّاً ونقداً.

ـ لو دفنته هناك Darling ما كان كلفني بنساً واحداً. تفهمين طبعاً ما أقول Right ؟

قِيل لي فيما بعد أنّه قد أُغمي عليّ مجدداً، وهي تحادثني محاولة إفهامي، وأنّ حيّان زوجي قد حملني إلى فراشي بعد أن تعهّد لزوجة أخي بتسديد المبلغ، فلا داعي لقلقها أصلاً:

ـ لأنْ لا شيء يضيع عليها، نحن أناسٌ أصحاب ذمّة في الغالب، لو تدري.

وأنّ عليها أن تثق به هو بالذات، شرط ألّا تفتح هذا الموضوع الحسّاس معي أنا بالذات مرّة أخرى، أعصابي لا تتحمل.

غادرت المرأة المحزونة لبنان وفي حقيبتها مبلغ خمسة عشر ألف دولار عداً ونقداً رافضة التقسيط، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ مقعدها يجب أن يكون First class نظراً لحزنها الشديد، ولحالتها النفسية لا الجسدية المتردية.

قضيت أياماً بعد مغادرتها في المستشفى، أصابتني حمّى شديدة ورَجّة، كنت أهلوس خلالها ساعات طويلة في الليل أو في النهار وأتحدّث عن البراغي والسيارات، وحرارة جسدي تتمرد على العلاج، فلا تنصاع لمحاولات خفضها؛ صرفت ثمانية أيام بلياليها أحارب الحمّى التي أمسكت بتلابيبي، ونيرمين ابنة أختي الحبيبة إلى جواري ترفض أن تتركني، وتشفق عليّ من الرائحة التي أدعي كلّ الوقت أنّها تحاصر أنفي، وتكاد تخنقني، فتطبق على أنفاسي؛ وحين انتصرت في النهاية على حرارتي كان جسدي قد أنهك تماماً، وارتسمت هالتان سوداوان حول عينيّ اللوزيتين الجميلتين.

وما سارع في شفائي يقيني بأن زوجة أخي سليلة التجارب البشرية المتعاقبة لتمتين الأنساب، قد غادرت لبنان بغير رجعة كما وعدت مسعود في زيارتها الأخيرة لقبره، إذ ودعته بحرارة فائقة وكادت تتنازل عن برودها، وتقبل الحجر الأبيض الرخاميّ الذي حفر عليه اسمه، معلنة سفرها بغير رجعة.

يدٌ تهزّني بشدّة، وكفّ تلامس خدّي وتكاد تلطمه:

ـ فاطمة، فاطمة، هاي، أين أنت، ما بك؟

الرائحة اللعينة عينها تملأ خياشيمي، الهزّ المتواصل لجسدي يلزمني فتح عينيَّ، أفتحهما مجدداً، يعي دماغي أنّه وجه حيّان يطلّ من فوقي، ملتمعاً برّاقاً أحاطت به الرائحة التي تدوّخ حواسي كهالة دخانية شفافة لا يراها سواي، لكنها تغشي بصري وبصيرتي، وتكاد تزهق أنفاسي.

[11]

لماذا لم أرحل في كلّ المرّات التي كان بديهيّاً فيها أن أرحل...؟ اقشعرَّ بدني، ونيرمين تجيبني حين سألتها عن حيّان:

ـ إنّه هنا في البلدة، لا لم يسافر إلى مكان.

ـ متأكدة؟

ـ فاطمة ما بكِ؟ طبعاً أنا متأكّدة، لقد رأيته البارحة، وسألته عنكِ كذلك؟

ـ ماذا قال؟

ـ بخير.

ـ ضحكت، وأنا أقفل المحمول.

ـ أجل أنا بخير، طالما أنا بعيدة عنه.

منذ الصّباح لم أعد كذلك، هل كان حقّاً في غرفتي، أنا أحلم، أم أني أحيا الحقيقة؟

كان إلى جواري في الغرفة صباحاً، يحوم حول سريري، وأنفاسه تلفح وجهي، أم هي حواسي التي استحضرته بكلّ هذه القوّة، وبهذه الوطأة التي لا تُردّ؟

غادرتُ سريري عند الحادية عشرة تماماً، تفحَّصت الفراش، الغرفة، الكنبة الجلدية التي أعجبتني، الشرفة الصّغيرة، حتى السّتائر الزّهرية أزحتها، لم أجده، قلت لنفسي:

ـ لا بدَّ أنّه في الحمام.

لم أجدْهُ.

جلست وقتاً، أستردّ أنفاسي، أريد أن أهدأ وأفكّر.

قمتُ من مكاني، دخلت الحمام مجدّداً، أخذتُ دُشّاً ساخناً عساني أستيقظ حقّاً، ارتديت ملابسي بعد أن استهلكت وقتاً في تجفيف جسدي وشعري من المياه. نزلت متمهّلة إلى منصة الاستقبال Reception). الموظّف الذي يرتدي بزّة جميلة كأنه إحدى الشّخصيات الهامة يبتسم لي، ويحييني بلطافة، أسأله بخجل:

ـ أحدهم أتى لزيارتي؟

نَفَى.

ـ هل فتح خادم باب غرفتي لزوجي مثلاً، هو وعدني أنّه سيلحق بي، وقد يفاجئني...

يهزّ رأسه أكثر من مرة، وهو يعلن:

ـ أنا هنا منذ السّادسة صباحاً سيدتي، لا أحد سأل عنك السيدة عسّاف أليس كذلك، الغرفة (404)، لا طبعاً، أنا أصدر الأوامر للعمّال ههنا إذا احتاجتهم أو إذا احتاجهم أحد.

ارتجّ جسدي.

بات حيّان يقيم في دماغي إذاً، ينبثق منه في اللحظة التي يشاء، في المكان الذي يريد.

ما يقارب الربّع قرن ذوّبت أطناناً من الوجود الزائد في التسويف والانتظار والمراوحة، لا أغادر ولا أقيم. أقول ليس الآن، انتظري بعد، عشرون عاماً أحيا في انتظار، الإنسانُ أحياناً تيسٌ بلا قرون.

كان يجب أن أفعل حين علمت بزواجه من تلك المرأة، غضبت وصرخت وشتمت، لاعنةً الأرض والسّماء، لكنني لم أقوَ على الرّحيل. حتى الآن أسأل نفسي لِمَ لَمْ أفعل، بدل أن نأكل بعضنا بالطريقة التي فعلنا، قضينا أيّامنا وليالينا نتحفّز ونتوثّب، ونشحذ السّكاكين ونُعدّها، لا هو سمحَ لي بالرّحيل، ولا أنا قطعت الحِبال، بقيت معلّقة في الهواء، قدماي لا تطاولان الأرض، ورأسي عاجزٌ عن بلوغ السّماء، وإلى الجحيم نغدُو كلّ يوم أنا وهو، عِراكٌ على كلّ كبيرة وصغيرة و«لا» تلوح دائماً على الشّفاه أطلقها ويُطلقها عند كلّ اقتراح. وحين يُجنّ الليل، وحين يحرّكه الشّوق حيالي، وتشتعل رغبته بي، ويُطل الشّبق من عينيه، حين يعنّ على باله الاقتراب من جسدي الذي يئنّ أتحوّل صنماً بارداً، ينحني هو على قدميه، يثور في وجهه، ينفخ، يعلو ويهبط، يلامس، يداعب، يقبّل ويشتمُ العبق ويفعل المستحيل، وكلّي ثلجٌ لا يذوب، ولا ينسال.

يجنّ عندها، يروح يلعن ويشتم ويسبّ كلّ الرجال، كلّ النساء، كلّ أصناف النساء.

أردّ ببرود:

ـ إذهب إليها، هناك ولي العهد، إبحث عنه في كل قِيعانها، استمرّ بالحفر هناك حتى تخرجه، ههنا يباب.

زرع الرجل نبتةً سامّة بيننا، وقمت أنا بتربيتها وبسقايتها، والعناية بها في كلّ لحظة ودقيقة.

نادية تقول لي:

ـ مجنونة، تتركينه لها هكذا ببساطة بعد أن صنعته، تنسحبين، هذه المملكة من صنعك وصنعه، إيّاك أن تهربي. مجنونة لو بقي يحيى ههنا، لكنت أريته نجوم الظهر، لكنّ الجبان هرب، لكنْ إلى أين؟ لو عاد بعد خمسين سنة أريك ماذا أفعل به، وكيف أعاقبه. صحيح أني تزوجت، لكنّ حسابه لم ينتهِ بعد.

أنظرُها ولا أراها، تعتقد أني أعاقبه على زواجه، أعاقب نفسي في كلّ لحظة، وفي كلّ ثانية لأني لا آخذ القرار، لأني لا أتسلّق الجدار الذي وضعه أمامي. خطّطت لحياتي بطريقة مختلفة، كلّ الخطط أفسدها، نلتقي دائماً، نستحيل بركانين يرميان الحمم في كلّ اتّجاه.

يغادر المنزل بعد أن يرجّ صُراخُه الجدران.

[12]

مياه نقائصنا ونقائص الآخرين ترتفع حولنا عالية جدّاً.

أحسدُ نادية أحياناً لزواجها من جَسّار، رجلٌ ضاحك طيّب، لا يحمل همّ غده. رفضتْهُ بداية.

ـ إنه أُمّيٌّ يا فاطمة، لا يقرأ ولا يكتب، وأنا معي ماجستير، هل نسيتِ...؟

ـ طظّ، لا لَم أنسَ، إنّه إنسانٌ طيّب، وأنت تعرفين هذا الأمر أكثر منا جميعاً. ألم تعد الطيبة تكفي هذه الأيام جواز عبور للحياة؟

ـ ولكن... بائع صحون؟

ـ إنّه صاحب محلّ، وليس بائع صحون، يه، ما بكِ؟

طواويس السرقات والعقارات الذين ترينهم أمامك يتبجحون كلّ يوم بما ينهبون أفضل منه؟

ـ ولكن أنتِ تعرفين، يعني المسألة القديمة، ماذا أقول له؟

لا تقولي شيئاً، إنّه يحبّك يا غشيمة، وهذا أهمّ ما في الأمر، كم مرّة طلب يدك حتى الآن، وهو يعرف أنك كنت بحكم المتزوجة، كأنك لا زلتِ في العشرين، يه، ما بك؟

تحيا نادية بسعادة وسلام مع جسّار، يؤرّقها فقط انتظارها ليحيى، تريد أن تبصق في وجهه لترتاح، وأن تعاتبه، وأن تبهدله وأن وأن... لكي تستمتع تماماً بحياتها مع زوجها ومع ابنتيهما اللتين تدللهما حتى العبادة... أطلب لها دائماً راحة النسيان.

الهاتف يعلو صوته، الذّبذبات تحمل صوت نادية، أقول في ذاتي:

ـ إبنة حلال والله.

ـ ها، كيف الحال اليوم؟

ـ سيّء.

ـ لم، ما بك، مريضة أنت؟

ـ لا، نسيْت أن أتناول الدّواء.

ـ لا، إيّاك يا فاطمة أدوية الأعصاب حساسة للغاية، لا تهملي مواقيت تناولها.

ـ أنا الآن أفضل، لا تقلقي، حصل شيء، أخبرك فيما بعد.

ـ كلنا في الهوا سوا، أنا مازلت غاضبة حتّى الآن أخابرك حتى أرتاح، للمرّة الأولى أصرخ في وجه المدير بهذا الشكل.

تضحك بعصبّية وتشنّج.

ـ خير ما بك؟

أسألها بلا لهفة للمعرفة.

ـ لا أدري كيف حصل ما حصل اليوم، ثمّة صدفة لئيمة تحوم في هذا النهار من أوله، حدثت عدة مسائل بسيطة كلها مرّت بسلام، لكن ما جرى بالضبط هو أن المدير كان يمرّ أمام صفي، صف العلوم العامة كنت أشرح درس التربية، تعرفينه، أتحدث عن قانون العقوبات، وأفنّد أنواعها وفقاً للجرائم المرتكبة، أشرح مصطلحاتها وتصريفاتها، وأفصّل القول في أنواع العقوبات، وأطرح أمثلة توضيحية تثبت المعلومات في أذهان الطلاب، فإذا بأحدهم قد راح يناكفني، وأنا أعدّد أنواع العقوبات وفق درجة الجريمة، كلّما ذكرت عقاباً ضحك، وضرب كفّاً بكفّ معلّقاً:

ـ يا حرام يا مس، هذا لا يمكن، هذا لا يحدث في بلادنا لا أحد يحاسب أحداً، تعلميننا يا حضرة المس كذباً وافتراءات، تضحكين على عقولنا، من يحاسب من في هذه البلاد؟؟ ها أنا أتحداك أن تذكري لنا جريمة تمّت المحاسبة عليها، ها، يللا اذكري...

غلى رأسي، كاد قلبي ينفجر، فقلت له بتحدٍ وبسخرية:

ـ ألم يعلّمك أبوك يا غشيم أننا في بلد لا نطبّق فيه أبداً ما نتعلمه؟؟ هذه معلومات للثقافة فقط وليست للتطبيق فأجابني بصفاقة وقحة:

ـ بلى هو علمني ذلك، وأنت تفسدين الآن تعليمي، ثمّ إيّاك أن تأتي على ذكر والدي في صفك، والدي أشرف منك ومن كل سُلالتك، والدي أشرف الناس. أفلتت أعصابي مني، هدرت في وجهه:

ـ صحيح بدليل أنه أكبر سارقٍ وأكبر حرامي، وأكبر كذاب أهنئك به، رجلٌ شريفٌ حقاً.

قفز الولد من مكانه يريد التهجم عليّ.

ـ تخيّلي يا فاطمة، تخيّلي.

ويبدو أن المدير كان يستمع إلى الحوار الدّائر بيننا، إذ وجدته قد قفز فوراً إلى داخل الصّف، وقف كالملدوغ بيننا، أبعد الولد عني بعد أن هدّده بالضرب والأخير يصرخ:

ـ هي من تهجّم عليّ، إنّها تهاجمُ والدي وتسبّه علناً أمام زملائي؛ في غرفة الإدارة دارت معركة حامية بيننا، أنا والمدير العتيد.

لاأزال غاضبة يا فاطمة، لا أعرف كيف أوقف فوران دمي، لا أدري كيف أفلتت أعصابي مني بهذه الطريقة، أخطأت، أليس كذلك؟ لكنني لم أتحمل أن يناكفني الولدُ هكذا، وأنا أعرف أباه، وأعرف كمَّ التجاوزات التي ارتكبها حتى الآن، وأوقن أنه متنفّذ بقدرة الرشاوى التي يبعثرها يميناً ويساراً، الفضائح فوقه وتحته، هو وسواه، ولا من حساب، إلى متى نستمرّ على هذه الحال؟ إلى متى يا فاطمة؟ لا مفرّ إلّا في الحياة الأخرى، يتهمني المدير بكلّ لؤم بأنني غير تربوية، أنا التي أفنيت عمري أقوّم الأخلاق، وأرشد النشء إلى المُثُل والقِيم وكلّ هذه البضاعة النافقة في هذه الأيام، يقول لي بأنني غير تربوية، وإنني أطلق العنان لمشاعري الشخصيّة، ولحساباتي الشخصية، ولإحساسي الدّفين بالنّقص، وأنني أنفّس عن غضبي بالافتراء على الطلاب. أنا، أنا يا فاطمة؟ أفكِّر أن أشكوه ليحاسَبَ على افتراءاته هذه، لكن إلى من سأشكوه، سيفتري المزيد عليّ، وربّما استعان بوالد ذلك الطالب سامحاً له بالانتقام مني، معقول، معقول أن نصل إلى هذا الدرك يا فاطمة؟ أكاد أجنّ، ساخَت الأرض تحت أقدامنا، لا مفاهيم مشتركة بيننا وبين هؤلاء الأهل الجُدد، يُسوّقون

لذهنية تلائمهم يربون أولادهم عليها، ويشرخون العلاقة التي كانت، أنا متعبة يا فاطمة، ما رأيك، لا أسمعك، لِمَ لا تجيبنني، هل مازلت معي؟ أنتظر حساب الآخرة ما رأيك؟

ـ أسمعك نادية، أنت تعلمين أني تركت التعليم وانسحبت لأني لم أعد أحتمل كل ذا، وأشياء أخرى، تضعينني أمام نفسي مجدداً، ألا يكفيني ما بي؟

لا بدَّ أن نادية شعرت بالرّجفة تسري في صوتي، فانطلق صوتها، وقد عادت نبرة القوة إليه:

ـ يَهْ أنا آسفة، آسفة يا فاطمة، لا أدري ما بي، لا أعلم كيف أحدثك بهذه المواضيع عبر الهاتف، وأنت قد هربت من هذا العالم لأعيدك إليه، انسي حبيبتي كلّ ما قلت لك، أرجوك، انسيه تماماً، الله يقطعني، لا أدري من أين يطلع الكلام، مؤكد ليس من رأسي، أنا بلا راس اليوم، اسمعي...

ـ خلص نادية انتهينا، أحدّثك فيما بعد، رأسي يؤلمني الآن.

أغلقت المحمول، ورميته بعيداً.

بقيت المسكينة خلال ما تبقّى من النهار تبعث رسائل تطمئن بها على حالي، وأنا لا أجيب، بمجرد أن يرن المحمول أقرأ الـ Message ثم أغلقه، عند التاسعة مساءً بعثت لي بنكتة ديموقراطية، كما وصفتها، أضحكتني.

ـ كان قائدٌ يؤنب جندياً:

يا حماراً لا تفعل ذلك ثانية، فأجابه الأخير:

سيدنا، الله يخليك صار فيه ديموقراطية بالبلد، فلا تقل لي حماراً مرّة أخرى؟

ـ وماذا أقول لك؟

ـ سيدنا قل لي حيواناً، وأنا أختار.

أعجبتني النكتة، قرأتها أكثر من مرّة، مَسَّجت لها:

ـ مهضومة متلك.

ـ الحمد لله، الآن استرحت.

ثمّة خبر آخر لديّ، لكنني سأتركه مفاجأة لكِ.

[13]

إنّه صباح اليوم السّابع، مارماريس الجميلة. الحياة تستيقظ بنعومة في أنحائها، في الفندق، الوجوه بشوشة لطيفة.

- بونجور Bonjour .

- Good Morning .

- صباح الخير.

هاي.

لطافة سائلة في المكان، تناولت فطوري، شوفان وزبيب وكوبٌ من الحليب الدّافئ. الكلّ حولي مطمئن رائق المزاج. كنت في الغرفة حين هاتفتني نيرمين، أعلنت اشتياقها وإحساسها بطول الوقت في غيابي، ثمّ سألتني عن موعد عودتي، أخبرتها:

- إني أعود غداً عند السّادسة عصراً تقريباً.

قالت:

- حسناً، أحدّد إذاً، موعداً قريباً معه، بعد ثلاثة أيام، ما رأيك؟

- تحددين موعداً لماذا، ومع من؟

- مع صاحب الجريدة.

أخبرتني أنّ صاحب الجريدة التي تعمل فيها رفض نشر الأقصوصتين اللتين كتبتهما، وأنها أرسلتهما إلى جريدة أخرى ناشئة عبر الفاكس، البارحة وصل الردّ، أعلن أنه يريد التعرُّف إليك قبل النشر، وأن الأقصوصتين أعجبتاه جدّاً. المدير طبعاً.

قلت:

- حسناً.

ورحتُ أحلم، سأعبر هذا الباب إذاً، ولسوف أتمكّن من الكتابة بعد الآن، سأجدُ ساحةً أمارس على أرضها الحياة بالطريقة التي ترضيني.

ولكن هل سيسمح لي حيّان بذلك، هل سيفسح لإسمي أن يعبر إلى الصّفحات المطبوعة. اليوم بات للرجل البسيط الذي تزوجته هيبة وسلطة، أصبح رجل سلطة معلومة، يعترض، ويوافق، يقول اللّا والنّعم، ويترك الأصداء ترنّ في الزوايا، وفي العلن. ما عاد بالإمكان تجاوزه بسهولة. سابقاً كانت المسألة أكثر سهولة، الآن نبتت للرجل الذي هو زوجي أنياب. لذلك أنا أحتاج حرباً صادقة أنهي بها حياتي، بدل الموت ببلاهة كأي هرّة في جحر من جحوره.

قبل أن تطفئ المحمول، قالت لي نيرمين:

- تعالي بسرعة ثمّة مفاجأة تنتظرك.

ـ بخصوص الأقصوصتين.

ـ لا، لا بخصوص حبيبتك نادية.

وَجَمْتُ.

ـ ماذا تركت الثّانوية، اعتزلت التعليم بعد معركتها مع المدير؟

ـ لا، وضعت الحجاب على رأسها، يَه أفسدت المفاجأة.

ـ ماذا، ماذا قلت؟ البارحة حادثتني، ولم تقل لي شيئاً كهذا!

ـ هي وضعته البارحة مساءً أصلاً. كان مفروضاً أن نلتقي أنا وسعاد ونهى وهي، تعرفين الشلّة إيّاها، نلتقي في D.T. نشاهد فيلم نادين لبكي الذي طوش الأرض (هلأ لوين)، على فكرة أعاودُ مشاهدته معك، حضّري نفسك، ونتعشى بعد ذلك بمقهى (البلد)، أنهينا الفيلم ولم تأتِ، كنّا قد بدأنا بتناول العشاء حين وصلت نادية، سعاد كانت تضع قطعة اللحم بعجين الرّقيقة اللذيذة في فمها حين وصلت، شهقت فكادت تختنق بها، احترنا بمن نعتني بسعاد أم بنادية، المهم توترت نادية في بداية الجلسة، ولم ترتح حتى غادرنا، كان ضحكها مشدوداً، تعرفينها، لا تستطيع إخفاء شيء، لكنها لم تقل الكثير، بصراحة لم أفهم ما يحصل، نسيت كان معها صديقة لا أعرفها...

ـ ولا أنا.

أقفلت الهاتف، أطفأته، لا أريد سماع شيء بعد، تمدّدت على السّرير، ساعة، ساعتين، ساعات، لا أتحرّك لا أفكِّر، ولا أمارس هوايتي بتحريك ساقي حين أكون في هذه الوضعية.

عصراً بدّلت ملابسي، ارتديت المايوه الأزرق، جعلت فستان البحر الملوّن فوقه، وانطلقت باتجاه الشاطئ.

السّاعة لم تتجاوز الخامسة، ومازالت أشعة الشمس حادّة، لكنني لم أطق ما كنت فيه، كان لا بدَّ لي من المجيء، خلعت الثوب، وانطلقت إلى المياه أذوب فيها، عساني أتحوّل ذرة من ذرّاتها التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

يعروني في أحايين كثيرة يقين حقيقي بضآلتنا، وبعبثية كلّ ما نفعل، هذه الحياة الهشّة القطنية التي نحياها، والتي لا ترضى بغير تدميرنا أحياناً، تدميرنا ثم طحننا وغربلتنا، وتصفيتنا، حتى تستلَّ منّا النفس الأخير، والأمل الأخير.

نادية التي تمرّدت دائماً، وصرخت كثيراً مذ غادرها يحيى وغدر بها، منذ أدار لها ظهره ومشى، بعد أن تذوّق جسدها، ومزّق روحها العاشقة له، استعاضت عنه بمهنتها، تفني نفسها فيها، تَسْفَحُ وقتها وجهدها، وأعصابها، وكلّ أفكارها في سبيل تطويرها، وتحسين أدائها، تُتهم بعد عشرين سنة بمهنيتها، بأنّها غير تربوية، وبأنّها تفسد الأجيال، لا تربيها، تعلن استسلامها اليوم، تستكين، تريد السّلام على الطريقة التقليدية التي نحسُن اللجوء إليها عند الشدائد.

من هو ذاك المدير الذي جرحها؟ المصيبة الحقيقية أنّ كلّ واحدٍ منّا يجعل في مُخّه محكمة قائمة، منصوبة دائماً، يطلق من خلالها الأحكام على اعتبار كَمَالِهِ هو، أنا أفهم نادية، وأعرف كم من الممكن أن يكون جرحها كبيراً متسعاً، عميقاً.

وأنا لأنانيتي صرخت بها، وهي تحادثني البارحة، تريد شكوى همّها، أخبرتها أن ما بي يكفيني وجعلتها تعتذر ما تبقّى من النهار، منعتها من إسماعي شكواها.

أضرب المياه المتدفقة حولي من كلّ اتجاه كأني أصفعها، تتدفق بنعومة لكنني أصارعها، أكره الضعف البشري، أمقت أن نضطر دائماً لاتخاذ المواقف قسراً، بدل العبور من ضفة إلى أخرى بقناعة واتزان.

الجولة الثالثة لي، تضيق أنفاسي، أتوقف عن السباحة قليلاً، أنقلب على ظهري وقتاً، أتنفس بعمق، طيور نورس تحلق في السّماء، أستردّ أنفاسي، أريح صدري أسبح باتجاه الشاطئ، أطلب الاحتماء من نفسي بالبشر المستلقين هناك، أتقدم من الشاطئ، يستوي جسدي، تضرب قدمي الحصى الأسود الصّغير، مُدبّب، يؤلمني، وأنا أدوس عليه، مسافة تفصلني عن اليابسة، يؤلمني وأنا أدوس على كميات منه، لكنني أتابع السير، أتذكر فقراء الهند الذين يقفون على المسامير الحديدية، ينامون عليها، ماذا؟ يتحدون أنفسهم أم الطبيعة؟ الحياة تحدٍّ مستمر، لا يمرّ يوم بدونه، أحياناً هو جميل، في أحايينَ هو مُمضّ، بلا طعم وبلا جدوى.

التحدي الأكبر غداً، أعود إليه عدواً، أعود إلى لبنان، أو بالأحرى أرجع إلى حيّان، إلى ما تبقّى من الحياة لي معه، سيتركني أتنفّس عبر الكتابة كما أتنفّس الآن، سيقول لي ليست لك، وسيسخر مني كما يفعل دائماً، أشك أنه يسمح للهواء بالعبور إلى رئتيَّ، يتغلغل في أعماقهما كما يفعل الآن، أعبّه عبّاً، وأحبّه إذ ينسربُ إلى كلّ خلايا جسمي، إلى كلّ مسامي، ثمّ أطلقهُ كحبيس خرج إلى الحرية، يعدو ويتوثّب.

أطلق عينيّ ترعيان على الجانبين إلى جواري، صفٌ هائل من البشر، الكلّ يتمدد على الشاطئ، الكلّ يطلب الاسترخاء، ولسعَ الشمس، يعبر نظري إلى البحر المترامي بلا حدود، إلى أشجار الصّنوبر ذات الخضرة الزاهية على الضفّة المقابلة، إلى السَّماء الصّافية، الذّائبة من الصّفاء والصحو، أفكر بأن لا بدَّ من وجود الجنة، يكاد ينمو فيَّ يقين بأنها على هذه الأرض بالذات، لكنّ البشر هم من يحيلونها الجحيم.

يبحث البشر دائماً عن التضاد، يسعون إلى القبض على الهارب من أيديهم، وإلّا لا أفهم كيف يرفض حيّان دائماً أن يطلقني، وأنا في كلّ يوم أعلن كراهيتي له واحتقاري لفعله، يريد الدنيا بأسرها بين يديه، لا يحبّ أن يترك منها شيئاً، لا أفهم كيف يهرب يحيى من نادية ليعدو بعيداً عشرين ألف ميل، لا أدري كم من آلاف الأميال، من آلاف السّاعات والأيام والشهور. الإنسان تركيب معقّد، ولا أفهم كيف تتزوج نادية وتنجب، وتبقى على انتظار له.

سنتان بعد أن تحسنت أحوالنا المادية تماماً، سنتان قبل زواجه من تلك المرأة، وأنا أطلب منه أن تُجرى عملية تلقيح صناعي، ننجب ولداً لنا يحمل بعضاً من ذواتنا، أطلب منه، وألحّ، أكاد أقبل يديه ورجليه، وهو يرفض ويسخر، ويعلّق أمامي بصلف:

ـ العيب فيكِ، وتريدين تحويلي إلى آلة تلقيح، مهزلة. يبدو أنك جننت تماماً، جدي لأبي لم ينجب من المرأة الأولى، الثانية أنجبت له خمسة، يعني هي قسمة ونصيب، حتى أختك عليّة تعرف هذا الكلام جيّداً، أسأليها.

ثلاث سنوات مرّت الآن على زواجه، والزوجة الجديدة التي تنظر إليّ بتعالٍ كلّما رأتني لا تنجب، الشماتة تتورم في قلبي، فرح لئيم يسعى في جنباته مع كلّ يوم يمرّ، والمرأة لا يمتلئ رحمها به، ولا ينتفخ بطنها بحملِهِ.

ـ قسمة ونصيب.

يؤمن حين يُريدُ، وسائر الأيام ينهش في لحوم العباد، ينتقي ويعربد.

فجأة أدرك، لا ربّما ليس فجأة، وإنّما بصفاء ما بعده، يدرك ذهني الآن الظّلم الذي تنطوي عليه علاقاتنا الاجتماعية المنافقة، وأوقن أن حيّان يبقيني إلى جواره حفاظاً على الصّورة في الإطار، وأنا أبقى معه كرمى لهذا المجتمع، نفاقاً وخوفاً من ألسنته التي تجيد اللسع والالتهام.

لم تجد نادية طريقة أقلَّ سوءاً لإنهاء صراعها المستمرّ سوى الحجاب، ما هي النهاية التي سوف أختارها؟ اللجة تخنقني، وتدفعني أكثر للتشبث بالرّمال، حتّى ولو كانت في هذا المكان مجرّد حصى مدبّب يدمي الأقدام. في لحظة، في لحظات، تستحيل الحكاية تراباً أحمر قانياً، يتفتت بين الأصابع، ويتهاوى فلا يبقى منه إلا نِثار، سأكون في يوم ما حكاية، أم أكون مجرّد، مجرّد نثار؟

القسم الثاني

أنا نيرمين...يُقلقني حالُ فاطمة...

لقد صارَ قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ
فمرعىً لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ
أدينُ بدينِ الحبّ أنّى توجّهتْ
ركائبُه فالحبُّ ديني وإيماني.
محيي الدّين بن عربي

[14]

تنزلق سيارتي الـ Nissan ببطء على الطريق الجبليّ، تنحدر بخفّة متناهية، أستمتع بالقيادة التي تعلّمتها حديثاً، أصدقائي سبقوني إلى ذلك، أهلي يخافون عليّ، إنّها السّنة الأولى التي أقود فيها سيارتي رغم أني قد بلغت الثانية والعشرين أو كدت أنهيها. انحدر نحو الطريق المحفوفة بالظّلال وبالصّمت المسائي، عن يميني تتراءى لي الهضاب الزرقاء الممتدة بتكاسل مُغرٍ على مسافات.

عشر دقائق وأصل إلى الأوتوستراد السّاحلي الحديث، أسلكه، خفّت زحمة السيّارات الآن، الوضع معقول. أقود بهدوء، ألتزم جهة اليمين في غالب الأحيان، ما زلت أخاف من القيادة، أشعر أن السيارات تهجم عليّ تريد أن تفترسني في كلّ مرّة أنظر في المرآة وأتطلع إلى الخلف.

أنهي منطقة الأوزاعي تقريباً، أسلك الطريق المؤدّي إلى مطار بيروت الدّولي، أعبر النفق الأول، أنتهي منه، تطلّ المباني العشوائية فوق السّور العالي الذي يسبق النفق الثاني الممتد، مبانٍ تعكسُ صراعاً وتهاوناً وتفاوتاً، تنضح بما في هذا البلد من خصامات.

أبنية متراصّة غامضةٌ بنيت على عجل، لا شيء يميّزها سوى الفوضى والبشاعة، وعدم الاكتمال.

يزورني الاكتئاب، يحتلّني، أكره الفوضى، أقاوم انزعاج اللحظة بالتفكير في الوسط التجاري، في الواجهة البحرية الفاتنة، في المحال الخرافية الأنيقة، في المقاهي والمطاعم العامرة بالناس من مختلف الأعمار، لكنها تكاد تكون من طبقة واحدة، أفكِّر بأننا لسنا بحاجة إلى ذاك المكان ربّما، لكنما مشهده يجعلنا رغم كلّ شيء نشعر بالإحساس بالانتماء للعالم الذي يعدو سريعاً إلى الأمام، بحاجة لما يحدثُ فيه من تقدّم وهندسة وتفنن في العمارة والبناء.

ربما المكان لا يعبّر عما نحن فيه حقّاً، لكنه يضعنا على أوّل الطريق نحو الأحلام، أحلام بأن ننتقل في يوم من كوننا عالماً ثالثاً يغرق في الفوضى، إلى عالم آخر لا يشابهه، ولا يسلّم عليه.

أغرقني هذا التفكير في كآبة شنيعة، رغم طبيعتي المتفائلة عادة، وأنا أحسُّ بالانقسام، وعدم التجانس، العدالة مفقودة على الأرض، أكره أن أفكِّر بذلك، لكنني أفعل، وإذاً، بدا لي أني لن أكمل طريقي إلى المطار، وأني سأتصل بزياد لنلتقي في أي مقهى، نتحدّث، ونحبّ، ونتبادل الأحمال، والضحكات، مجرّد خاطر ليس إلّا مرَّ في رأسي سريعاً.

لكنّ فاطمة، خالتي، تصل بعد قليل، طائرتها تحطُّ عند الخامسة عصراً في مطار بيروت، أُسْقِطُهُ. أحبّ أن أناديها فاطمة، أسقطُ لقب خالتي في غالب الأحيان، لا أحبّ المسافاتِ أن تقوم بيننا، أعتبرها أختي من غير أمي.

أمي علّية التي أنجبتني هي أكبر البنات في منزل جدّتي، باتت الآن في الخامسة والستين، أنجبت أختي رُلى مولودتها البكر، بعد ذلك أنجبت خمس مرّات، خمسة ذكور، ارتاح قلبها، لم تعد تريد الانجاب، اكتفت في الواقع.

حملت بي وهي في الثّالثة والأربعين من عمرها، غلطة، أغضبتها كثيراً، حاولت إنزالي أكثر من مرّة بأنْ كانت تقف على السّرير، وتقفز على الأرض، تقف على طاولة خشبية مرتفعة وتنطّ

كالوزّة، تخرج إلى الحديقة وتقفز من جلّ إلى جلّ، دون فائدة يبدو أني كنت قوية منذ صغري، تمسكت بجدران رحمها، والتصقت بها، رافضة الإذعان لعنادها، والخروج.

أنجبتني وهي غاضبة، تخبرنا بذلك جميعاً، لكنها بمجرّد أن رأتني أبتسم بنعومة، وأنا أخرج إلى الدنيا بلا صراخ، عَفَتْ عني وسامحتني، وتعلّمت مع الأيام كيف تحبّني، وكيف تحنّ عليّ.

في العام الذي تزوّجت فيه خالتي فاطمة، تزوّجت أختي رلى كذلك. كانت لاتزال في السابعة عشرة من عمرها، أحبّت خالداً ابن جيراننا، الطالب الجامعي الذي كان يدرس الصيدلة في الجامعة العربية ببيروت. حين تقدّم لخطبتها رفض والدي على اعتبار أنها مازالت تلميذة فاشلة في المرحلة الثانوية، لكن رلى العفريتة، والتي كانت لا تهدأ لحظة هربت مع خالد صباح يوم ربيعي عن شرفة المطبخ، بعد أن وضعَ لها سلّماً، وتلقفها من على الأرض، وانطلقت معه في سيارة أخيه التي استعارها متجهين إلى بيروت، إلى منطقة الكولا حيث كان يقيم في شقة صغيرة جدّاً على سطح إحدى البنايات السكنية، أرادا أن يعقدا قرانهما لكنها كانت دون الثامنة عشرة، بقيت يومين في شقته لا يمسّها، ولا تقترب منه كما أخبرا الجميع فيما بعد، قرّرا العودة إلى البلدة، طبعاً صفعها والدي كفّاً رنّ صداه في المنزل عند وصولها مع خالد الذي حاول إظهار تماسكه، ورجولته أمام والدي، لكنما الخوف كان يطلّ من عينيه. اكتفى بالوقوف جامداً أمامه.

ثمّ نادى والدي زوجته التي هي أمي، قائلاً لها بحزم دون أن ينظر إليها:

ـ البنت كبرت، سأزوّجها.

برطمت أمي، ولعنت البنات والنساء وسبّت لهنّ، ولصغر عقولهنّ، ودخلت غرفة رلى، وشدّتها من شعرها أكثر من مرّة، لتطمئن أنّها أظهرت غضبها، لكنها في أعماق قلبها كانت راضية عن قرار زوجها، واحترمته كثيراً.

تزوجت رُلَى «بطنّة ورنّة» حتى يعلم أهل البلدة أنّ ابنتنا شريفة، وأن الشّاب لم يدخل بها حين اصطحبها معه إلى بيروت، وأنه يرغب بها زوجة له لا في السرّ بل في العلن، وأمام كلّ الناس، وغصباً عن عين من لا يريد، يعني أبي.

[15]

بعد ثلاثة أشهر من زواجها حملت أختي رُلى ببكرها كريم... انشغلت والدتي بحفيدها الأول تحبّه وتغدق عليه حنانها، على اعتبار «ما أعزّ من الولد إلّا وَلَد الولد»، وبعد ذلك توالت ولادات أختي، أنجبت ستة أولاد، الواحد ينطح الآخر، ثلاث بنات وثلاثة صبيان، ثمَّ نشطت والدتي حتى زوجت أربعة من أولادها الشبّان، لكي تكتمل فرحتها بذريتها، وبعدها راحت تستقبل أحفادها منهم الواحد تلو الآخر، فتنشغل بهم، وتقضي وقتاً طويلاً بينهم، وأنا أضيع، أغرق في زحمة هؤلاء الأحفاد الصّغار الحلوين المهضومين، ياي، والذين نافسوني على كلّ شيء، نافسوني على حبّ أميّ، على ثيابي، على ألعابي القليلة، وبما أنه لم يكن أحد فاضياً للاهتمام بي، نافسوني على طعامي، على مكاني، وسطوا في غالب الأحيان على سريري. أحياناً كنت أرغب في عضّهم.

في المقابل، كانت السنوات تتوالى على خالتي فاطمة وهي لا تنجب، فيزداد تعلقها بي، ويتورّم حبي في قلبها، وتسرف تدليلاً لمزاجي، وأنا أستغل ذلك، وأتمادى في الارتماء بأحضانها.

باتت المرأة حريصة على أن أنام عندها على الأقلّ يومين في الأسبوع، ليلة السّبت وليلة الأحد، أعود الإثنين إلى منزل أهلي بعد رجوعي من المدرسة.

حينها كنت أخرج معها ومع زوجها حيّان إلى السينما نشاهد أفلاماً، ويصحبانني نهار الأحد إلى مطاعم فاخرة نتغدى كلّ يوم أحد في واحد منها، نتغدى ونستمع إلى أغنيات مطرب اتفق معه صاحب المطعم، حيث يسلطن زوج خالتي، ويشرب الويسكي تحديداً وأحياناً يستخفّه الطرب بعد أن ينتشي، فينهض من على كرسيه، ويبدأ بالتمايل والرقص والتصفيق، يصرّ بعد ذلك على أن تنهض فاطمة معه، تشاركه نشوته، تراقصه وتضاحكه، وتتمايل أمامه وحوله.

كنت أسمع ضحكاتهما، وهي تكركر وتتوالى، وقد يسكر زوج خالتي، فيغادره حياؤه ويروح يدعو بعض زبائن المطعم إلى الرقص معه، بعضهم يتحمس ويقفز ليشارك، بعضهم يعزف عن المشاركة مكتفياً بالتصفيق.

نبقى في المطعم حتى الليل، وعندما نعود تشرف خالتي على استحمامي، وتتأكد من نظافتي، وخلويّ من أية ميكروبات، تطلب من الخادمة المصرية ـ على فكرة خالتي كان عندها دائماً خادمة حتى قبل موجة الخدم السيرلنكيات والفيليبينيات التي عمت البلاد بعد ذلك ـ كانت تطلب منها أن تحكي لي قصّة، حكاية حتى أنام، وأن ترافقني إلى سريري، وتطمئن إلى أنّ الغطاء قد غمرني بكليتي.

جدار غرفتي ملاصقٌ لجدار غرفتهما، الخادمة المصرية فتحية ثرثارة كبيرة رغم أنها طيبة القلب، تفوح منها في غالب الأحيان رائحة الطبيخ ممزوجة برائحة العرق، أسنانها صفراء مسوسة، لا أحبّ حين تقبّلني.

بعد أن تنهي قصتها التي تكرّرها على مسمعي كلّ ليلة، قصة الأقزام السّبعة حاشرةً فيها مشاهدَ مخيفة، كنت أتظاهر بالنوم حتى تغادر غرفتي سريعاً، تطفئ الضوء، تغلق الباب، أجلس في

سريري، وأروح أستمع إلى مناغشات فاطمة وزوجها حيّان، وكركرتهما وهمسهما الخافت، وصوت السّرير الذي أتصوّر كيف يحتضنهما، ويحتضن كلّ ما يفعلان.

أبقى أستمع حتى يخفت صوتهما تماماً، أو حتّى يغشى النعاس عيني فيغلبني...

أستيقظ في الصباح على قبلة فاطمة المعطّرة تطبعها على جبيني وخصلات شعرها المبتل بعد استحمامها تلامس خدّي، توقظني بلطافة:

ـ يلّا نيرمين، يلّا حبيبتي، قومي تناولي فطورك معنا. أحبّ رائحتها...

زمنٌ جميلٌ قضيته من عمري في منزل فاطمة وزوجها، زمنٌ هادئ كنت أجده مفعماً بالحب والسّعادة والمناغشة والضحكات.

أفسحت لي فاطمة مساحة متسعة من حياتها، أبعدتني عن العجقة التي كانت تحاصرني في منزل والدي، حتى إنها أفردت لي خزانة عندها، فيها ملابسي وألعابي، أبقيها هناك، ألعابٌ جميلة، بيجاما أرتديها حين أكون عندها وملابس للخروج عندما أرافقها في نزهاتها أو في زياراتها، وملابس Sport مريحة حين نكون في المنزل بعد الظهر.

وكانت لي مكتبة هناك، أنجز على طاولتها فروضي لليوم المدرسي التالي، وأقرأ القصص الجميلة التي تحرصُ دائماً على مفاجأتي بها. وحين كانت لاتزال تمارس التدريس كانت تصرّ على أنّ أحلّ تمارين علمية إضافية، وتلزمني أن أقرأ باللغات الثلاث.

أعترف أني أدين بثقافتي، وبإكمالي تعليمي الجامعي لفاطمة تحديداً، بدليل أن أختي رُلى لم تتعلّم، رسبت أكثر مرّة في الصفّ الأول الثانوي، بلغت السّابعة عشرة من عمرها وكانت لاتزال فيه، تكاد تتخصص بموادّه، أخوتي الشبان لم يحصّلوا التعليم الكافي، معظمهم انصرف إلى المهن الحرّة، أخي عماد صاحب محلّ سمانة، أخي زكريا امتلك شاحنة يعمل عليها، أما وليد فموظف بسيط في البنك الكندي، وعلاء يعمل منذ فترة لا بأس بها في منطقة السوق الحرّة بالمطار، الوحيد الذي تعلّم من أخوتي الشبان هو وسيم، درس الحقوق في الصّنائع حيث كانت الكلية، وبات محامياً، عنده مكتب محاماة في بيروت برعاية أكيدة من فاطمة، وبتأثير واضح على ذهنيته التي تشبه ذهنيتها.

عندما تفتّح وعيي، وبتّ في الرابعة عشرة من عمري، رحت ألاحظ أن رقص عمي راح يخفّ عندما نخرج إلى المطاعم، ما عاد يشرب، ولا عاد ينتشي، نجلس وكلاهما صامت واجم، بعد ذلك لم نعد نخرج كثيراً لنتغدى في الخارج، صارت الفيليبينية التي حلّت مكان فتحية تحضّر لنا الطعام في المنزل، توزّعه على المائدة، نجلس أمامه متقابلين، نتبادل كلمات رسمية للغاية، مقتضبة وجادة.

في أوقات معينة يصل الكلام إلى الشّفاه، نزدرده مع اللقيمات القليلة التي نتناولها. انتصبت ألواحٌ زجاجية شفافة بيننا نحن الثلاثة، نتكلم فلا نسمع بعضنا.

وفي يوم فاسد لا أعرف كيف وصل، انفجر الزجاج، تبعثر، وصار شظايا تتساقط على رؤوسنا جميعاً، ولا سيما رأس خالتي فاطمة. وتحوّل المنزل الهادئ الارستقراطي إلى منزل مسكون بالصّراخ، وبالغضب وباللؤم.

عامٌ كاملٌ مرَّ، وأنا أعاينُ تدهورَ العلاقة بين خالتي وزوجها، أرى العنف الذي يمارسه عليها، وأنظر تحوّل هذا الثنائي الجميل إلى غريبين قاسيين يلتهمان بعضهما في الليل وفي النهار في الصيف وفي الشتاء، في السّر وفي العلن.

عندما بلغت السادسة عشرة، رفضت بعد عيد الميلاد الذي احتفلت به خالتي في الـ Burger King ، العودة معها إلى المنزل. تذرّعت بالشوق إلى والدتي. المريضة حينها، وبخوفي عليها، وأصررت على العودة مع أخوتي الشباب الذين أتوا خلال الحفلة تباعاً، عدت إلى منزل أهلي، حملت معي كيس الهدايا، في اليوم التالي وزعتها كلّها على الأحفاد الكثر الذين يؤمون بيتنا، احتفظت لنفسي بالحاسوب Apple الذي خصتني به فاطمة، فكنت الوحيدة في الأسرة التي تمتلك واحداً منه.

[16]

في الأيّام التي تلت حفل عيد ميلادي السّادس عشر، رحتُ أبتعد شيئاً فشيئاً عن منزل خالتي فاطمة، صرت أتهرّب من النوم عندها، أدّعي المرض، أخبرها أن رفاقي سيأتون لزيارتي، أو أني سألتقي ريماس ابنة أختي رُلى التي تصغرني قليلاً:

ـ تحتاج مني أن أشرح لها بعض المسائل الحسابية.

ـ سأحلّل وإيّاها النصوص الأدبيّة التي درستها هذا الأسبوع.

تهزّ فاطمة رأسها وتبتسم...

كأنها ستعجز هي عن فعل ذلك، كأنّها لم تكن أستاذتي الأولى في كلّ موادّي الدّراسية.

كنت أكذب علناً، وكانت ألطف من أن تُفسد عليّ كذبي.

وحين كانت تصرّ أحياناً على أن تصطحبني للغداء معها، ومع زوجها إلى أحد المطاعم قائلة بحماس فاتر:

ـ اليوم سنتغدى في الخارج، ألن ترافقيني، الجلسة لن تحلو بدونك؟

أشعر بخجل شديد من نفسي. أعلن موافقتي، وأحدّد الوقت الذي سأحضر فيه إلى منزلها، أحالَ الوقتُ جلساتِ الغداء بيننا إلى جلسات تعذيب حقيقية، لم يعد الصمت هو المهيمن فيها، صار شيئاً ضبابياً كأنه الغبار الخانق يتمدد فيما بيننا نحن الثلاثة، يمنعنا من رؤية بعضنا بغير تشويه، ومن الحديث مع بعض بغير اختناق، كنت قد تحولت بالنسبة لحيان امتداداً عضوياً لفاطمة، وكانت كراهيته لها تَنْسحبُ أحياناً، لتطاولني برذاذها.

بعدها امتنعت تماماً عن مرافقتهما إلى جلسات الغداء هذه، بت أكتفي بصحبة فاطمة منفردة، تصطحبني من منزل أهلي، منزل أختها لتشتري لي الملابس الجميلة قبل الأعياد، وفي حفلات أعياد الميلاد. تشتري معي الكتب المدرسية، تقوم بتجليدها بنفسها، ثمّ تعيدها إليَّ في اليوم التالي. تبتاع هدايا مميّزة قد لا تكون التمعت في بالي بعد، وتباغتني بها، كلما ابتعدت عنها جسدياً كلما علقت روحي بها.

أعترف أنّ فاطمة دللتني كما لم تدلل أم ابنتها، كما لم يدللني أحد أخوتي، أو أي إنسان عرفته سواها.

وفي فترة ابتعادي حاولت الاستعاضة عنها ببنات أخوتي، كنت لاأزال بعيدة عنهن حتى ذلك الوقت، وجدت فيهن بعد فترة تسلية حقيقية لي رغم فارق العمر بيننا، بعضهن كن لطيفات فعلاً كريماس ودنيز ابنتي أختي رُلى، رماح لم تعن لي كثيراً وهي الأخت الثالثة لهما. لين ابنة أخي الكبير عماد كانت مهضومة للغاية، شكلنا نحن الأربعة ما يشبه الفريق العائلي الذي يجتمع بانتظام في منزل العائلة الرئيسية، منزل أهلي، نجتمع عصراً أو مساء على الشرفة الكبيرة المطلة على البحر، نضحك ونتبادل النكات وأخبارنا المدرسية والعاطفية، نستمع إلى أخبار الفتيان الذين نضع أعيننا عليهم. ونتحدث عنهم كأننا نعرفهم جميعاً، وكأنهم أحبّة مشتركون لنا جميعاً، كأن نتذاكر:

ـ ماذا فعل بشّار اليوم؟

ـ كيف عوقب محمود عند الحصة السادسة لأنه نسي فرض Math ، فأرسل كذا Message لهادية وهو خارج الصّف، وراح محمولها يرنّ بين حين وآخر إلى أن أخرجها المدرس من صفها كذلك.

ـ وكيف ألقى أستاذ التاريخ القبض على مازن، وهو يكتب قصيدة عن ريماس وأنفها الجميل، بينما كان الأخير يشرح ويستفيض محللاً موضوع الفراعنة، وأفكارهم حول العالم الآخر والحياة الثانية، وجمال نفرتيتي التي اشتهرت بأنفها الأقنى، وحين سأله الأستاذ ساخراً هل يعرف معنى الاسم ريماس وصاحبته حتى يكتب لها قصيدة أجاب هذا الأخير متحدياً: لا، لكنني أستوحيته من حديثك يا أستاذ ومن أخبارك عن نفرتيتي.

ضجّ الصف بالضحك، وهم يعرفون حبّه لريماس في الصف الأدبي.

انعقدت صداقةٌ حقيقية بيني وبين هؤلاء الفتيات، ماتت الغيرة التي كنت أجدها في قلبي حيالهنّ وأنا صغيرة، استحالت حبّاً وودّاً، وإغداقاً عليهن بالهدايا التي استمرت فاطمة تغرقني بها، دون أن تحاسبني إذا لمحتها مع سوايَ. أحياناً كنت أمنح لين بعض الملابس التي تشتريها فاطمة لي لأنّ مقاس جسدها هو نفسه المقاس الذي يلائمني، وأعطي دنيز الكثير من الأكسسوار الذي تشتريه لي، فهي تحبّ الأكسسوار بكل أنواعه.

لم تكن لتغضب، بل تسارع إلى إبداء ملاحظات لطيفة حولها، وتعلن استملاحها لما ترى من جمال.

أحبّ فاطمة، وأغضب تماماً حين يخاصمها حيّان، وحين يسيء إليها.

أصررت على أن أصطحبها من المطار اليوم، أريدُ لها أن تصلُ بهدوء، وألّا يتعكر مزاجها، لا أريد لقسوته أن تزحف إليها سريعاً. انتظر سفرها، وفعلَ ما فعل، عندما يريد لا تقف الدنيا بأسرها في وجهه، لم يعد الرجل يعنيني الآن، فاطمة وحدها هي هاجسي، أريد أن أحميها منه ومن قسوته، أحسست أنها مرتاحة سعيدة هناك، لم أشأ إفساد عطلتها بأخبار ذاك الغبي، إلى متى أستطيع حمايتها من قدرها؟ بعض البشر لا يستحقون ما يُعطى لهم. الإنسان مخلوق جحود فكّرت بذلك وأنا أضع الخطوط تحت أسطر من المقال الذي قرأته اليوم، ثورات في اليمن، في ليبيا وقبلها في مصر، قتلى وجرحى وفوضى، ورؤساء امتصوا دماء شعوبهم طويلاً، رفضوا كلّ الخيارات وتمسّكوا بكراسيهم حتى النفس الأخير، لكل عصر نيرونه، فكرتُ بجحود الإنسان وبقسوته التي لا تعرف أحياناً الحدود.

[17]

أقول لنفسي وأنا أرى فاطمة تتقدم باتجاهي متجاوزة الحاجز الحديدي على أرض المطار:

ـ مازالت خالتي جميلة.

ربّما لأنّها لم تنجب؟ ولم تُفسد قوامها الجميل بالحمل وبالإرضاع.

ربّما، لكنّ بعض الأطباء يرون أنّ الحمل حالة ضرورية لجسد المرأة، كذلك هو إرضاعها الأولاد.

بماذا أفكِّر في هذه اللحظة، تقترب فاطمة أتلقفها بلهفة، تصلُ إليَّ، فأرتمي في حضنها، أعلن بلا مواربة:

ـ اشتقت إلى رائحتك.

تمرّر أصابعها الطرية على شعري الحريري المنساب، تعلّق متضاحكة:

ـ مؤكد، والدّليل أنّك رفضت أن تسافري معي.

ـ أردتك أن ترتاحي منّا جميعاً، دفعة واحدة.

ـ مازلت محتالة كما عهدتك.

تتأبط ذراعي، نتوجه صوب السيارة التي ركنتها في موقف المطار، أين هي، أين هي؟ دائماً أجد مشكلة في العودة حيث تركتها، أجل 8 parking ، لمحتها، أسحب خالتي من يدها، العامل الذي يجرّ عربة اليد خلفنا يسرع مُتّبعاً خطواتي:

ـ حقائبك كثيرة.

ـ اليوم الأخير كان لـ Shopping ، تعرفين ولعي.

ـ أفسدتني في هذه المسألة بالذات، وأنتِ أدرى.

ـ الحصّة الكبيرة لك هنا.

وأشارت إلى الحقائب.

أقبّلها.

حبّ حقيقيّ ينبعُ من ذاتي حيالَها.

ـ كيف ستتلقى النبأ؟

أسأل نفسي.

ـ لم يكلّف نفسه عناء المجيء إلى المطار لاستقبالي.

أفهم أنّها تشير إلى حيّان:

ـ لا، حرام عليك، أنا منعته.

ـ عافاك.

يرصّ العامل الحقائب في مؤخرة السيارة، أخجل من حجمها الصغير، أقترح عليه أن يضع واحدة على المقعد الخلفي، يلبي الاقتراح، تنقده خالتي أجرته مضاعفة، ينطلق داعياً لي ولها بطول العمر وبالبحبوحة.

ـ اكتسبت سمرة جميلة.

أقول لها والسّيارة تخرج من منطقة المواقف التابعة للمطار.

ـ أليس كذلك؟ أعجبني اللون، أحببته.

ـ سنذهب الآن إلى منزل أهلي، وبعدها أوصلك إلى شقتك، ها ما رأيك؟

ـ كما تشائين.

ـ كيف كانت الرحلة؟

ـ لطيفة.

ـ موعدنا مع الرجل غداً، تكونين قد ارتحت، يقول إنّ أسلوبك شيّق، لم يصدّق أنك تكتبين للمرة الأولى.

تضحك بتباهٍ الآن:

ـ ليست المرة الأولى يا صغيرتي، لكنها الأولى التي أطلعك عليها.

في منزل العائلة كان الكلّ منتظراً: علية بحبّها ووقارها، وحضنها الكبير الذي يسعنا جميعاً، والآخرون أختي رلى، وأخوتي الشبان باستثناء عماد، ومعظم الأحفاد تحلّقوا جميعاً حولنا مهنئين بالسّلامة.

العشاء كان شهياً. بصراحة لم تترك علية صنفاً شهياً لم تحضّره، أحبّ طعامها. أكلت كثيراً، التبولة كانت لذيذة، كذلك الكبة، ورق العريش بالزيت، متبل الحمص، كلّها أصناف أعشقها، وهي تعلم ذلك، حين تريد تدليلي تحضّرها معاً.

فاطمة لم تأكل كثيراً، قالت إنّها تغدت خفيفاً في الطائرة، لا شهية لها بعدُ على الأكل، سئمت لكثرة الطعام الذي تناولته هناك.

ـ أكلهم طيّب؟

ـ لا بأس به، بعضه يشبه طعامنا، لكنّ طبخك يا علية أطيب بكثير.

ـ بدليل أنك لم تأكلي شيئاً منه.

ضحكنا جميعاً. بعد العشاء وزّعت فاطمة الهدايا، لم تنسَ أحداً، حتى الصّغار اختصت كلّاً منهم بهدية لطيفة.

الحصّة الأكبر كانت لي فعلاً، اشترت لي تنورة جلدية قصيرة أعجبتني جداً، سيحبّها زياد، وجاكتة جلدية، وحقيبة يد (LV) ، وسجادة يدويّة صغيرة، لكنها فاخرة، أضعها في غرفتي. تمنحني كلّ

ذلك أمام الآخرين، ولا تبالي، أحس بالإحراج، تكتفي بابتسامة، وتهزّ كتفيها.

والدتي أعجبتها السّجادة الجميلة التي اختصتها بها، لكنها مصمصت شفتيها، وقالت وهي تنظر إلى البعيد:

ـ عليك أن تحرصي على قرشك أكثر، لِمَ يا فاطمة يدك سائبة هكذا؟ أمّنا لم تكن كذلك. ضُبِّي يدك قليلاً يا أختي. لم تجب فاطمة، تظاهرت بعدم سماعها، انطلقت إلى غرفتي، تريد أن ترتاح، وتتصل بحيّان تخبره بعودتها. شاغلتُها قليلاً، لا أريد لها أن تفعل الآن.

ـ غداً موعدنا عند الحادية عشرة لن تنسي، أَليس كذلك؟

ـ ماذا أحمل معي؟

ـ لا شيء، أنا أرسلت له نسخة، وتركت لنا النسخة الأصلية.

[18]

في مكتبه استقبلنا الرجل ببشاشة مفتعلة، أذناه كبيرتان، وعيناه صغيرتان، أنفه معقوف، وأسنانه مسوّسة، لم أحبّ مشهده كثيراً، يحدّثنا بتعالٍ خفيف، ينظر إليّ، ولا ينظر إلى فاطمة، كان قد زانها ببصره كذا مرّة قبل أن تجلس، بعدها تحاشى النظر إليها.

جلس مواراباً لها، انصرف بكليته نحوي، وكأني أنا صاحبة الأوراق.

ـ ها، كيف الحال؟

ـ الحمد لله.

إجابة عادية، أهرب منها عادة.

ـ المرة الأولى التي تكتب فيها؟

ـ لا، ليست الأولى.

أجابت فاطمة محاولة اجتذاب نظره، لكنها لم تفلح.

ـ وماذا تعمل الآنسة؟

ـ أنا محررة مبتدئة في جريدة النهار؟

ـ عال، عال في أي قسم؟

ـ في القسم الاجتماعي.

ـ براً؟و، براً؟و.

كان الارتياح صوتاً، لم يعكس وجهه الإحساسَ فعلاً.

ـ ولِمَ لَم تنشريها هناك؟

مازال ينظر إليّ، وفاطمة تجيب.

ـ لا يبدو أنهم أعجبوا بالأقصوصتين هناك.

ـ هـه.

فجأة، وكأنه ما عاد يطيق صبراً، التفت بكليته إلى فاطمة، يسألها وقد فَتَح عينيه الصّغيرتين على آخرهما، فبدا مشهده مضحكاً:

ـ أنت السّيدة عسّاف كما أخبرتني الآنسة، قريبك روجيه عسّاف المعروف؟

مرَّ وقتٌ قبل أن تستوعب فاطمة المشهد، وحينَ فعلتْ بدأت تضحك خفيفاً، ثمّ راحت تضحك وتكركر بانطلاق وتتلوى، تعالى ضحكها، وانقلب قهقهة، راحت تضرب كفّاً بكفّ، ثم علا صوتها.

ـ المهزلة نفسها في كلّ مكان إذاً، يا ربّ.

انتصبت واقفة، ضحكتها لا تنتهي، أنا حائرة محرجة، لا أدري ما أصابها:

ـ على كلّ، هاتِ الأوراق، ما عدت أريد نشر شيء يا أستاذي الكريم.

ونترت الأوراق التي يحملها من يده.

ـ تعالي نيرمين، يلّا، خلصنا.

سرتُ معها، وأنا لا أفقه شيئاً مما يجري، خرجنا. وقبل أن تغلق الباب، قالت له بصوت مرتفع هدّار طافح بالسّخرية:

ـ لا لست قريبة روجيه عسّاف يا أخ محمود، وعلى فكرة أنا فاطمة عسّاف لو تدري، حتى ولو كان شعري أشقر وعيناي خضراوان.

صفقت الباب بقوة، ارتجّ جسدي.

ـ ألم أقل لك إنه بلدٌ متعفن.

ـ هاي فاطمة ما بك، ليس هكذا نتعامل مع الموقف، اهدئي.

ـ تعالي، لا أريد شيئاً بعد الآن، أنا تركت التعليم هرباً من هذا العفن الذي يصدّره الأهل لنا عبر أولادهم، يا ربيّ أيّ لعنة هي أن يسكن الإنسان بلداً كلّ ناسه مهووسون بالدين، ومعظمهم لا يفقهون عن الدين شيئاً، كأن الله بحاجة إليهم وإلى تعصّبهم، أي عمى، أية لعنة يا ربّ السّموات؟ حتى هذا المبتدئ لا يريد أن ينشر كلمة قبل أن يطمئن إلى ملّتي، أي لؤم أعمى؟

حين أوصلت فاطمة إلى شقتها كانت لاتزال تحادث نفسها، لم تعرف كيف تصمت، أطلقت لغضبها العنان، حاولت تهدئتها أكثر من مرة.

ـ هيا يا بنت، ألا تعرفين أني أتناول Deanxit منذ مدة، ومستحيل أن أصمت الآن، الكلّ يطفو على السطح في هذه اللحظة، تعبت من الصّمت، نيرمين أكاد أتقيّؤه.

[19]

لم أستطع تهدئة فاطمة حتّى انتابتها ـ وقد جلست على الكنبة ـ نوبة بكاء قويّة رجّت جسدها رجّاً، وجعلتني أقف مذهولة حيناً من الزمن.

قلت في نفسي: حسناً دعيها تُخرج كلّ ذلك من بطنها. فاطمة التي تمرّدت على مدير مدرستها بعد أن راح يحشد الطلاب في مناسبات حزبية معيّنة، وبعد أن راح يتساهل مع بعض الأساتذة يثيرون نفوس الطلاب بالعصبيات الجاهلية، تبكي الآن، رفضت ذلك في المدرسة، فقدمت استقالتها بعد أن فشل الكلام في إقناع سواها، ها هي ترتطم الآن بحائط العصبيّة من جديد، في الشارع؟ لا، من على هذا المنبر، يا للهول، أفهمها، لكن لِمَ لا تكبر فاطمة هذه؟ لِمَ لا تضع رجليها على الأرض قليلاً؟ تنظر إلى العالم من بُرج عاجيّ، أفكر بذلك، وأنا أفتح باب السيارة بعد أن ناولتها حبّة مهدئة، وأطمأن بالي إذ وجدتها تأوي إلى سريرها كطفل هدّه التعب.

حين يمدّ شحاذ يده إلى نافذة سيارتها تعطيه كمية من الأموال، أجنّ منها، أقول لها: المحتاجون حقّاً لا يمدّون أيديهم.

أتذكر مشهد الكثيرين منهم، وهم يجوبون آخر الليل على مستوعبات النِّفايات ، ينتشلون منها البقايا، مشاهد تراها فاطمة في الأفلام ليلاً فتؤلمها، لا تريد أن تصدّق أنها باتت موجودة في بلادنا. لا تصدّق أنّ الناس لم يشفوا من الحرب بعد، وأنّها كال؟يروس كلّما قاومته، وأوقفت دواء الالتهاب قبل المدّة المحددة للقضاء عليه، تشكّل من جديد، واتخذ له شكلاً آخر، ومنحىً من الهجوم مختلفاً.

تزوّجت فاطمة حيّان، وأقفلت على نفسها الدّائرة ما بين المنزل والمدرسة، وحين وجدت المشهد المثالي للمدرسة يهتزّ قدّمت استقالتها، انسحبت، وبقي لها حيّان، رجل التحولات التي لم تكن قد أدركتها بعد، اهتزّ الآن مشهده هو الآخر، لكنها لم تستطع المغادرة، كان القرار أكثر قسوة، وأكبر إشكالاً، وهي تضع كلّ أموالها بين يديه، الأموال التي كانت راتباً لها، والأموال التي ورثتها عن والدها. لم تصدّق يوماً أنّ حيّان يمكن له أن يهشّم المشهد الجميل الذي شيّدته في رأسها، أحياناً تلقي نتفاً أمامي ثمّ تندم.

فاطمة لا تنزل إلى الأرض، لا ترى الكرة الأرضية التي تتلوى على نفسها الآن، لا لم تعد تدور على محورها، ثبتت في طرف من أطرافها، وبات كل البشر يدورون في ناحية واحدة من الكرة، أو على الأقل هم يعتقدون أن العالم الحقيقي يكمن هناك.

ارتمت فاطمة في المستشفى، طريحة الفراش حين طلبت الكنة الأميركية سيلين من الأسرة الثكلى بدل انتقال، إذ شحنت جثة مسعود أخيها إلى لبنان، سقطت المرأة مغشياً عليها، والآن هذا الرجل لمجرد أن رآها سافرة مشقرة، ملونة العينين، يظنها من الملة الأخرى، يحادثها متأملاً الجدار، كأنّه يتأمل أفكاره ومسلّماته التي لن يتنازل عنها كرمى لعينيها.

أفضل الأمور بالنسبة لي الآن أن أتصل بزياد، يجب أن أحادثه، أريد أن أسمع صوته، أرتاح على كتفه قليلاً من هذه المرأة الكبيرة الصّغيرة التي هي خالتي وأمّي وأختي وصديقتي في الوقت عينه.

يا له من تمرين مضجر أن تردّد في أعماقِ ذاتك كلّ يوم الشيء نفسه، وتجتهد في تغليفه أمام الآخرين، وفي جعله لطيفاً ومسالماً ومحايداً إذا أمكن!

كم كدّست من أحجار في دواخلي وأنا أنظر إليها! أنظر إلى منزلها الذي يتداعى بهدوء، المنزل الذي احتضن طفولتي، وفتوتي، كيف ستكبر هذه المرأة، ولا أعود أحمل همها، وأخاف عليها كأني أمّها!؟

محمول زياد مقفل، أتصل للمرة العشرين، لا يجيب لا أدري ما يشغله الآن. أجد نفسي، وبغير إرادة واعية مني أتجه نحو منزل أختي الكبرى رُلى، قلت أتسلى أنا وريماس قليلاً، بدل الانفراد بذاتي، وسماع ترّهاتها.

أسمع جاد يرندح بمجرد أن تفتح البنغلاديشية لي الباب، تحييني بابتسامة خجولة، صوت جاد يطغى في المكان، أصغر الأبناء يغني كلما دخل ليستحمّ، يدرس ويغني في الحمام. مازال في صف البرو؟يه، صوت غنائه يختلط بسقسقة المياه المنسابة بقوة، وبطرطقات لا أدري مصدرها، ربما يرقص، ضجة في حمامه، أمرّ قرب باب الحمام أرفع صوتي:

ـ نعيماً.

لا يجيبني، لا يسمع ربّما.

يعلو صوته مرندحاً بالإنكليزيّة:

.Tomorrow, Tomorrow, I Love you tomorrow you’re only a day away

تعلو الابتسامة وجهي، أحسّ بالانتعاش كأنيّ أستحمّ. أجمل ما في الدنيا أن تحبّ، لِمَ لا يدرك البشر هذا الأمر فيرتاحون ويريحون؟

أسأل عن ريماس، تقول رُلى:

ـ هي في بيت خالها، اجلسي، ما أخبارك؟

أنظر إليها، قليلاً ما أفعل، أتفرّس في وجهها، يشعّ الاطمئنان منه، أفكّر أحياناً بأنّها اختارت الدرب الصحيح، جعلت منزلها جنّتها التي لا تغادرها، العالم كلّه يأتي إليها، هي ترفض أن تذهب إليه.

أمي علية قلقة، يقترب عيد ميلادي الثالث والعشرون، ولم أتزوج بعد، تقول لي ببساطة:

ـ عنّستِ، أختك رُلى تزوجت وهي في السابعة عشرة وفي الثالثة والعشرين كان لديها ثلاثة أبناء بعيون الشيطان.

أعلّق:

ـ كالبقرة.

ـ عيب عليك، وأنا بقرة؟ ما أنا تزوّجت في الخامسة عشرة، وأنجبتكم باكراً كذلك، أنت فقط تأخرت.

تضحك باستحياء، أناكفها:

ـ لذلك لا تحبينني، ولا تريدين بقائي في منزلك.

ـ اخرسي، أحبّك غصباً عن عينك. لكن عليك أن تريحيني وتتزوجي.

ـ حاضر يا سيدتي، سأفعل قريباً، أمرك.

وأنا في حيرة من أمري. فاطمة تصرخ في وجهي:

ـ مجنونة، إيّاك أن تخاطري بحريتك، ليس الآن، عيشي حياتك، مازال الوقت مبكراً.

رأسي حائر، أحياناً حين يطلّ الاطمئنان من عينيّ رُلى، أحنّ إلى الزواج، وعندما أنظر في عيني فاطمة والفراغ الذي يبدو فيهما، وإذ أسمع هلوساتها في المستشفى وهي تسبّ حيّان، وتلعن كلّ رجال الأرض أخاف، وأبعد يدي عن يدي زياد اللتين تلاحقانني.

أريد أن أخرج إلى العالم، أشارك في بنائه، في وضع بصمة لي فيه، في مكان ما منه، لكن ما يحصل في العالم بات مخيفاً، أنقل بصري بين المحمول، أصابعي تتابع النقر على مفاتيحه أطلب زياد، وبين وجهها الهادئ المطمئن، أحسدها مجدداً على اطمئنانها، لا، لا أستطيع أن أكونها، ليس الآن.

[20]

أمرّ وزياد أمام المباني الضخمة المشيّدة على أرض وسط العاصمة. عماراتٌ من النوع الممتاز، عالي الجودة، ثمّة واحدة جديدة تتعالى على بُعد أمتار من تلك المنجزة، أشار إليها زياد قائلاً:

ـ هذه هي، عمارة حيّان.

ـ متأكد؟

ـ سببُ هذه الزيارة هو جعلك ترينها.

رفعت رأسي إلى الأعلى، هالني اتساعها وارتفاعها، ورشة حقيقيّة ناهضة، ككل ما حولها، عمّال وأصوات وآلات، والكلّ في حركة، أصوات تتعالى وهياج وحماسة، وأحياناً غناءٌ بصوت محشرج، قدّرت أنّ البناية تبلغ مقدار عشرة طوابق، زياد قال، أكثر، تبلغ اثني عشر طابقاً.

ـ له فقط؟

ـ بالطبع له. من تظنّينه؟ هاوٍ في عالم العقارات والبناء؟

زوج خالتك واحد من الديناصورات التي تشتري البلد، وتبيعها لا ندري لمن، ربّما للشياطين...

دُرنا حول المبنى أكثر من مرّة، توقفنا أمام محلّ صغير جانبي فيها:

ـ البناية من اثني عشر طابقاً، كلٌّ منها عبارة عن شقتين، يقول حيّان إنها بيعت جميعها لخليجيين وأجانب، الأخير منها ترك دون تقسيم، طابق بأسره تبلغ مساحته أربعماية متر، هي له، هكذا قال، يجهّزها بنفسه، ويشرف شخصياً على اللمسات الأخيرة منها، الألوان، البلاط، المدفأة، حتى مفاتيح الكهرباء لا يريد أن نختارها، قال إنسوا أمرها الآن، عليكم بالباقي، خلال حركتنا لاحظت حزاماً أخضر بدأ يلف البناية مانحاً إياها رونقاً لطيفاً. نعود إلى المحلّ الصغير نقف داخله، هو المركز الخيري يقول زياد، ينوي الرجل تجهيزه بسرعة قبل سواه، ليتسنى له افتتاحه، صغير، صغير ستقولين إنه صغير أعلم، لكنه للدعاية فقط، تعرفين لزوم رجل الأعمال أن يُقال عنه إنه خيّر، يستكمل الصّورة طبعاً.

ـ أحلم أن أسكن في واحدة من هذه الشقق.

أقول متضاحكة.

ـ هذه ليست لنا يا صغيرتي، اسكنيها بالحلم.

ـ ستصحبني اليوم إلى شقتك، أليس كذلك؟

ـ وعدتك.

نكمل دورتنا حول المبنى بعد خروجنا من المحلّ الصغير، نبغي العودة إلى الطريق العام، بعدها إلى الموقف حيث ركنت سيارتي، وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام حيّان، يقف مبتسماً فاتحاً ذراعيه، معه شابان يحملان أوراقاً وحقيبتين، يبدوان مهندسين مبتدئين، يقفان باحترام فائق إلى جانبيه.

ـ أهلاً، أهلاً بالعروس الجميلة، وبحبيبنا زياد، يقترب، يسراه على كتف زياد، يمناه على كتفي، أهلاً، أهلاً، يحمرّ خدا زياد وهو يردّ على الترحيب، أنا أبقى صامتة، لم أتوقعه. يداعب خدّي، بعد أن ينزل ذراعيه:

ـ أهلاً، كيف حال عروسة المستقبل، والمهندس العبقريّ، أنت الآن في إجازة، تنزّه العروس؛ أحمد أنا الله، لا يبدو عليّ أني أرغب بالحديث.

الرجل لا يعبأ بفتوري يسحبني وزياداً من يدينا، يقول ببساطة كأنما يستكمل حديثاً كنا قد بدأناه منذ مدّة:

ـ ستريان الآن الطابق العلويّ، إنجازي الأهم حتى هذه الساعة، إنه تحفة، البحر يمتدّ صفحة زرقاء أمامه، لا شيء يحجبه، لا حائط، لا شجر ولا بشر، أنا منه في أعلى عليين، هاهاها. تسحبين يديك من يدي؟ هاي ما بك؟ لا تريدين الصّعود؟ مجنونة، أقول كخالتك، أم كأمّك الثانية؟ هي كذلك رفضت المجيء، لكن أنت ستصعدين معي، تباركينها، لطالما كنت أتفاءل بوجهك، أنت تعلمين، ثم إنّ خطيبك له نصيبٌ من هندستها، ترين فنّه. أجل، أجل، على مهلك، تنبّهي لموضع قدمك، إيّاك أن تدوسي على المسامير، شجاعة والله، تقولين لا تخافين من المسامير؟ مِمَ تخافين إذاً؟ من زياد؟ لا، لا لا تخافينه، من (الخوازيق)، أن يضع لك في يومٍ ما خازوقاً مبشماً؟ هاهاها. أزعجتك؟ انتبهي لخطوك، مزحي ثقيل، تعرفين هذا الأمر، آه طبعاً لست جديداً عليك. تربيت في حضني، زياد يعلم ذلك؟ لا، لم تخبريه، لم تخبريه أنك تربيت في بيتي، وفي حضني وتحت سمعي وبصري؟ تماماً كما ربيّت خالتك أم أمّك؟ تفضلين فاطمة؟ حاضر يا ستي فاطمة، فاطمة أمرك، ربيتها لكنها طلعت بلا تربية هاهاها. ماذا لا تسمحين لي بذلك؟ حسناً، لكنني أسمح لنفسي، أنا زوجها، هل نسيتِ؟ ماذا ماذا تبرطمين؟ انتبهي لئلا تقعي. أمسكها جيّداً يا زياد، وأنا أمسكك كذلك. أنت تعرفين أني أجيد الإمساك بالكنوز، لكنّ فاطمة كما تحبّين تسميتها لا تجيد الإمساك بها، غشيمة، تضيّع كل الفرص المتاحة أمامها، أول من ضيّعت، ضيّعتني، أنا فرصتها الضّائعة يا نيرمين، لو تدرين ماذا، ماذا تقولين لم أسمعك؟ أبعدوا هذه الحجارة. إنّها تشعر بالفراغ هذه الأيام. وأنا السبب، أنا السبب؟ هذا افتراءٌ والله. إنّه مثل أي فراغ آخر يا سيّدتي مجرّد فراغ ليس إلّا، ولا علاقة لي به، تعالي إليّ ها، ابتعدي عن هذه الكومة من الأحجار، تعالي نحوي، ماذا تعبتِ؟ ما أحببتها منك صبيّة في عمر الورود، وتتعبين بسرعة؟ استحيت أنا أن أتعب. أنا لا أتعب، حطيها في رأسك، وأسمعيها لأمّك فاطمة هذه، لا أنا لا أتعب. الحياة فرصة ضائعة، إذا لم نغتنمها، وإذا لم نخطُ، خطوة، خطوتين كلّ الخطوات التي توصلنا إليها، لِمَ لا تفهمين ما أقول؟ فاطمة كذلك لا تفهم. تقول إني ألهث بلا ثمن غشيمة. وحياة الله أكبر غشيمة عرفها التاريخ. تقول بلا ثمن؟ وماذا عن هذه العمارة، ماذا عن العقارات الأخرى؟ أيّ ثمن أبغيه أكبر؟ الأثمان فاقت الخيال، الحمد لله، صفقة رابحة، صفقتي مع الحياة رابحة، هي التي تقضي أيّامها في الخُسران. ماذا؟ لا، لم أرها بعد، ستستقبلني بوجه مقلوب، اعتادت على ذلك، كأنّها تعاقبني، لكنني عاقبتها هذه المرّة، أنا من تولّى الحساب، تسألين أم تسخرين؟ ربّنا؟ لا، لستُ ربنا لكنني ربّ منزلها، وعليها طاعتي، من تظن نفسها؟ على رأسها ريشة، وأنا على رأسي ألف ريشة، ها أنظري، انظري. وأخيراً، وصلنا، الحمد لله.

وصلنا، لكن وجهك أصفر، تدخنين؟ لا، لا تفعلين لِمَ وجهك أصفر هكذا، آ، فهمت، فاطمة لا تطعمك جيّداً، لم تعد تستطيع إطعام نفسها أصلاً. بلا حَيْل تتقاعس عن كلّ واجباتها، تقولين عيب؟

ليس أمام زياد: ما زياد حبيبنا، ما عاد غريباً، أحبّه على محبّتك والله، ومحبّتك من محبّة فاطمة لو تدرين «وكرمال عين يكرم مرج عيون» تعرفين هذا المثل؟ لا تعرفينه. انظري، انظري، أمامك المشهد الرائع كلّ الوسط ينبسط أمامك كراحة الكفّ، وهذا البحر المُذهل الزرقة يحوطه كأنه الزنار المخمّلي، تسخرين مني؟ الشقة جعلتني شاعراً؟ أجل، ولِم لا؟ موقعٌ يجعل الحمار يشعر ويقول الشعر. لذلك الحق على فاطمة طبعاً، ليس لأنها لم تأتِ ليس لأنها حمارة حاشا قدرها، ولكن لأنها لم تعد تشعر بهذه الأيام.

أنا أستطيع أن أحلّ عقدتها؟ ماذا؟ هذا رأيك النهائي؟ لا أحد يستطيع شيئاً لأحدٍ يا صغيرتي، مجرّد هراء ليس إلّا، التعزية، أكرهها، هذه الكلمات التعزية، الترضية، التسوية التنازلات، تفه أيّ معتوه اخترع هذه الكلمات. الحياة تحتاجُ منّا أن نقبض عليها بكلتا يدينا، وأن نعتصرها اعتصاراً كما نعتصر امرأة بين الذراعين اعتصاراً كي نشتمّ عبيرها الحقيقيّ. ماذا أخجلت عذريتك؟

إيّاك أن تدعي الخجل أمامي، لا، لا، أعرف كيف تفكر فتيات هذه الأيام، وكيف أنهنّ بتن صائدات ماهرات، يعرفن كيف يضعن الهدف أمام أعينهنّ، وكيف يصبنه في قلبه تماماً. أثرثر كثيراً، رأسك يؤلمك، مؤكد ليس مني، بل من الارتفاع، الارتفاع يخفّض ضغط الدم، أليس كذلك؟ تعلّمت هذا الأمر في المدرسة؟ لم أنس تكاليفها بعد وتناكفينني هاهاها، إيّاك أن تغضبي، أنا لا أريد إغضابك، أريد تسليتك فقط، نحن نتسلّى الآن ليس إلّا. ماذا هل تجد هذه الشقق زبائن لها؟ ست عشرة شقة تمّ بيعها، لأجانب وخليجيين إنّهم يتهافتون على الشراء، لبنانيون لا، لا مكان لهم هنا. ها وأنت يا زياد مالك تبدو صامتاً، لا يعجبك الكلام؟ جيّد، بلى يعجبك، وماذا عن العمل في شركتي؟ كذلك يعجبك، هذا جيّد. قِيل لي إنك أخذت قرضاً من البنك، وطلبت إفادةً براتبك، أجل أجل، ولِمَ لا؟ تريد أن تؤمن لنفسك شقة؟ حقك، حقّك الطبيعي يا أخي، لِم تخجل هكذا؟ مازلت طري العود. لم تقل لي كم عمرك؟ تسعة وعشرون عاماً، القرض لمدة ثلاثين سنة؟ كثير يعني يصبح عمرك تسعة وخمسين حين تنتهي من القرض، وبعدها تموت هاهاها، بعد الشرّ لا لا أنا أمزح فقط، أنت شيخ الشباب. وأنت يا نيرمين في الثالثة والعشرين؟ فرق طبيعي للغاية؟ لا أنسى، وكيف أنسى عمر ابنتي بالتبني؟

لم تتبنكِ فاطمة رسمياً؟ لكنها فعلتَ عملياً، غصباً عني؟ مؤكد ليس غصباً عني، فأنا أحبك كابنتي، وتعرفين هذا الأمر تماماً. لكنني لم أعد أحبّ خالتك، وهي تدرك ذلك، وربما لا تدرك، وربّما أنا أحبّها، وإلّا لِمَ أتمسّك بها رغم عنادها «من نسيَ قديمه تاه»، وأنا يا حرام أخاف أن أتوهَ إذا تخلّيت عنها، لا لا اطمئني لن أتخلى عنها، إنّها البركة كلها، الزوجة الأولى، وَالبَلْفَة الأولى، ماذا ستقول حين ترى الزوجة الجديدة؟ الزوجة رقم ثلاثة، على فكرة هذه الشقة جارة البحر لها، في المبدأ هي للسُكنَى معها، جديدة وصغيرة وجميلة، تحتاج شقة جديدة في هذا الوسط الحالم بالذات، متى أصبحت قديمة يحلّها الحلّال، نعرف عندها ماذا نفعل، تماماً لكل داء دواء، ودواء خالتك الكي، إيّاك أن تقولي ثانية إنّها تحسّ بالفراغ، هي التي تخلق الفراغ في كل مكان تحلّ فيه تزرعه بالصّمت، الصّمت يأكل كلّ شيء حولها. أنا البيت، وأنا السّرير الذي تأوي إليه، وفي كل يوم بعد أن تنهض تبصق عليه، ابتلّ وجهي بالبصاق، إيّاكِ أن تحدثيني عن فاطمة بعد الآن، انتبهي أمامك النزول صعب، تماماً كالصعود، لا ربما هو أصعب، هي لا تفهم الآن أني لا أستطيع العودة إلى الوراء، يا ربي لِمَ لا تفهم هذه المرأة ما أقول، انقطع خط ما بيننا، صعب، صعب يا نيرمين الحياة مع امرأة صامتة، عيناها تقولان كلّ الحقد، وفمها يواجهك بالصّمت وبالعتاب؛ في بداية حياتنا

الزوجية كانت تتدفق كمياه شلال، لا أستطيع الفكاك من إسارها ومن تدفقها، نجحت نعم نجحتُ في البداية بجعلها تنبجس وتتفجّر وتتدفق، أنا صنعتها، واستمعت إلى صخب الحياة الضاجّ في داخلها يحملني لا أعرف إلى أين؟ كان زمننا كثيفاً حينها مشبعاً بالحياة والرغبة، اليومَ حياتنا صحراء قاحلة، لا شيء يصفِّر فيها سوى الريح، تعرفين ريح الصحراء ناشفة تترك الفم جافاً مالحاً مرّاً هاهاها، أبحث عن الرطوبة الآن في مكان آخر، أتنفس الحياة ههنا بعيداً عن منزل خالتك، تفهمين يا نرمين؟ لِمَ أحدّثك بهذا الكلام؟ هو كلام لم أقله لأحد، ولا حتى لها، تعتقدين أننا يجب أن نتصارح؟ مثل إجري، ما عاد الآن يعنيني هذا الموضوع، بتّ على الضفة الأخرى، ولست مستعداً للعودة بعد، إذا أرادت، هي من عليه أن يسبح باتجاهي.

ها قد وصلنا، تعبتِ مجدداً؟ ووجهك شاحبٌ من جديد، أصفر، مع أنّ الهبوط أسهل وأسرع، ليس من الدرج من الحديث إذاً؟ تحبين فاطمة إلى هذه الدرجة؟ وإذاً تحدثي معها، عقّليها، أنا لست مستعداً، أسأليها لماذا تصرّ على أن تجرجر كلّ شيء وراءنا، تصرّ على حمل كلّ السّلال المحشوة بالخراب وبالتراب، أسأليها يا نيرمين لماذا تصرّ على بناء كلّ هذه السّدود في وجهي؟ وأنا ربُّ من شيّد السّدود وهدّها على رأسها، وعلى رؤوس كل من لا يريدون!

[21]

ما إن وصلنا إلى الطابق الأرضيّ حتى سلّم علينا حيّان، ومضى... كأنه لم يكن معنا في جولة!

وكأنه لم يكن يتحدّث في أكثر المواضيع حميميّة.

صافحنا ومضى...

لم يلتفت وراءه. تكلّم ثم انطلق ليعلو صوته في أنحاء المكان يأمر عاملاً هنا، يوجّه مهندساً هناك، يطلب من مجموعة رجال متحلقين إنجاز مهمة سريعة، نسينا تماماً، وفتح صفحة أخرى في دفتره.

كان لا بدَّ لنا من الرّحيل، انتهى دورنا، عدنا إلى حيث ركنت سيارتي، لا يمتلك زياد سيارة. نقصد الشقة التي اشتراها زياد، اطمأن بعد التحاقه بشركة حيّان أنه قد بات يمتلك راتباً ثابتاً فاشتراها، أعانه أخوه في مبلغ المقدّم، لكنّ التقسيط سيكون لفترة طويلة كما قال حيّان، قد نموت قبل أن ننتهي منه، ولكن لِمَ أستغرب أليست كلّ حياتنا في هذا البلد تقسيطاً، ما الجديد في الأمر؟ نحن نحيا بالتقسيط، يقسّطون لنا المشاريع، يقسّطون الزودة، يقسّطون الكهرباء والماء، حتى إنهم يقسطون لنا الموت، كلّ شيء بالتقسيط. لِمَ أتوقف عند موضوع الشقة؟ عالمٌ يحيا بالتقسيط.

أخبرني زياد أنّ الشقة على الجناح، سلكت جسر سليم سلام، تزعجني القيادة في داخله، يمتلئ صدري بثاني أكسيد الكربون، أكاد أختنق عندها، أتنفس الصعداء بعد أن أخرج منه. اقترح زياد أن يتولى القيادة عني، نصل بذلك أسرع. يعرف المنطقة أفضل مني.

اتجه نحو BHV أو ما كان كذلك سابقاً، اشتراه منذ فترة أحد الخليجيين المتمولين، بتنا نراهم بكثرة في بلادنا، استمرّ بعد ذلك يتقدم إلى الأمام.

نهضة عمرانية لافتة على الجانبين. البلد بأكمله ورشة ناشطة، مولات جديدة ما كانت منذ فترة، خوري هوم، قبلان هوم، حُكيّم، استمرّ زياد يتقدّم إلى الأمام، تقاطعٌ صغير، وينقطع سيل العمارات الفخمة، والسيارات الفاخرة الجديدة، نصلُ إلى شارع فيه بنايات متوسطة الارتفاع، متوسطة الهيئة، يتقدّم زياد مسافة، بعدها يركن السيارة أمام إحدى تلك البنايات، مشيراً:

ـ هنا.

نزلت. الهبوط سهل، قال حيّان.

لا، ليس سهلاً بالمرّة.

الشقة كانت منجزة تقريباً...

أحسست كأني في علبة كبيرة، وفيها مربّعات صغيرة، كلّ غرفة علبة، وفي الزاوية مربعان صغيران هما المطبخ والحمام. حمامٌ واحد في كلّ الشقة.

انقبض قلبي، ما كان يجب أن أرى شقة حيّان اليوم بالذات. كأني كنت في السّماء ثم دخلت جُحراً، لكن أفضل ما فيه هو زياد يقف إلى جواري كالفراشة تحوم حول المصباح.

كان الشاب يتنفّس حبّاً إلى جواري، الشقة تعبق بحبّه، وبأنفاسنا، يخفق قلبي في كلّ مرّة ينظر إليّ، في كلّ مرّة يأخذ يدي بين أصابعه يناغيها ويحبّها، أحسّ عندها وكأنني لاأزال مراهقة تعدو، يخبرني أنّ ما يسعده في علاقتنا أنّها منذ اليوم الأوّل مثار دهشته، ومثار توهّجه، وأنها تجعله دائماً في حالة ترقب وانتباه.

وأنّه سعيدٌ لأني أحسّ به دون أن يتكلم، وأنّه يعبدُ الأرض التي أمشي عليها، يتمنى أن يجعلني أسعد النساء، وأهنأ النساء بالاً، وأن مصيري لن يكون لحظة كمصير فاطمة، لأنه لن يتوقف عن حبي يوماً، سيموت ببساطة عندها. ولن يسأم من النظر في عينيّ والاسترخاء فيهما.

يقول لو تطيعه الحياة لكان طلب منها أن تعيده إلى الخلف، إلى بداية وعيه، ليتعرّف إليّ من زمان، منذ عشر سنوات، يغار أن تمرَّ سنة من وعيي لم أكن فيها معه. يقول لي: الحياة تستحقّ أن تُعاش بحقّ.

أقول له: إني أرفض التطلع إلى الخلف، وأن علينا أن نخطط للأمام، حدّثته عن آخر الكتب التي أقرأ، عن المسرحية الهزليّة التي شاهدتها، ولم تعجبني، علّقت: لا يمكن لمسرح أن ينهض في أمة ميتة، لم يبدُ مهتماً بالموضوع، ترنمت بآخر مقطوعة موسيقية سمعتها وأعجبتني، استعرضتُ له بعض ماضيَّ مع حيان وخالتي، دافع عن الرجل، يحترم طموحه واجتهاده، دافعت عن فاطمة بشراسة، قلت المرأة لا تستحقّ ما يفعل معها، للمرأة أولوياتها كذلك، تبادلنا تفاصيل لم نفكر فيها أبداً ونحن بعيدين عن بعض، أبديت ملاحظة كنت حبستها في داخلي سابقاً أن الشقة صغيرة، لكنني أحببتها لأنه فيها، ضمني بين ذراعيه وهو يرتجف انفعالاً، قبلني بلهوجة ثمّ هدأ وأنا أستجيب له، وأذوب بين يديه كما تذوب قطعة السكر في كوب الشاي السّاخن، استسلمنا لحلم لذيذ رقيق، لم أفق منه إلّا على صوت رنين هاتفي. تكثف الزمن في لحظاتٍ لينحلّ بعدها ويذوب كما يفعل كلّ شيء في هذه الحياة.

القسم الثالث

أوراق مختلطة

... كلّ ذلك يهجم
وينقضُّ علينا من دون توقّف
لكي يعاقب لا كفاية
قلوبنا المُترعة.
الشّاعر الألمانيريلكه

[22]

عندما وقفتُ أمام قبر أمّي، لبستني قشعريرةٌ باردة.

كان كلّ ما فيّ ثلجيّاً أبيض، لم أعد أعرف كيف أقطع الذّهول الذي غرقتُ فيه، لأعود إلى نفسي، عندما عدتُ أخيراً بعد جهد مضنٍ، كان رأسي فارغاً.

لا أجيبُ عن كلام عليّة أختي، لم تنقطع ثرثرتها طوال الفترة التي لبثنا خلالها في المقبرة، هي قليلة الكلام في منزلها، تخرجُ يصيبها إسهالٌ كلامي، لا تتوقف، تروح تعلّق على الكبيرة والصّغيرة، أشجار السنديان المتعالية فوق الأضرحة، حبّات البلوط والأوراق اليابسة التي لا تجد من يجمعها، المياه المنسابة في أماكن متعددة، أحدهم سقى ورود الضريح الذي يخصّ قريبه، وتركَ صنبور المياه مفتوحاً، سالت في الأنحاء.

عليّة لا تصمت، كأنها في نزهة، تتكلم في كلّ شيء، أمّنا المرحومة، ذكرياتها، أحبائها، ماذا فعلت بملابسها التي خلّفتها، وكيف وزعتها على دور الأيتام، طبيخها الذي لا يُعلى عليه، القورما الشهية التي كانت تحضرها. تتحدّث وتمصمص شفتيها. الله يرحمها أقول بصوت خافت:

ـ الله يرحمها، لا أحد في الدّنيا يطبخ اللي كانت تطبخه.

لا أعلّق.

يبقى وجهي جامداً، أقرأ الفاتحة، أمسحُ بكفي وجهي، لا أفهم لِمَ نفعل ذلك، تقرأها بلهوجة وتعود تثرثر.

تتأبط ذراعي الآن، أوراق السنديان اليابسة تخشخش تحت أقدامنا، يعجبني صوتها، تتوكأ عليّة عليّ، تخبرني أنّ ساقها تؤلمها، وأنها باتت تحتاج إلى مِشدّ لها، أعلمها الطبيب بذلك حين زارته، ضغط دمها مرتفع، لا تعرف السبب.

ـ لا شيء يرفع ضغط دمي.

تقول لي، وهي تلهث.

ربّما حزنها على زوجها رحمه الله؟ لكنّ الوقت قد مضى، وقت طويل، خمسة عشر عاماً، ما عاد تذكّرُهُ يجرح قلبها كما كان يفعل سابقاً، صار تذكراً أقرب إلى الحنان، تبتسم له حين يعنّ على بالها، وتضحك حين تتذكر نكاته وتهافته عليها، زوجها كان لا يشبع منها، كيفما حَارتْ ودارت أمام ناظريه يستملحها، ويمدّ يده عليها ـ نفسه خضراء ـ مرّة يربّت مؤخرتها، ويشهق ما شاء الله! مرّة يزغدها في بطنها ويملّس عليها، أحياناً يقرص صدرها وهي تمرّ أمامه، تصفع كفّه، وتبرطم، وقلبها يزغرد:

ـ إستحِ يراك أولادك، لقد كبروا.

يعلّق ببساطة:

ـ طظّ، عندي إيّاك بالدّني.

دلّلها كثيراً ذلك الرّجل، تعرف أنّه أحبّها حتى آخر أنفاسه، ربّما لذلك انفجر قلبه ـ تضحك ـ وماتَ باكراً، فِطس، لم يتحمل كمية الحبّ التي حملها لها فطقّ وانفجر، مات المسكين في الخمسين، لم يتمتّع برؤية أولاده كباراً، ولا بأحفاده الذين تنعم هي بقبلاتهم الطرية الآن، تلتفت نحوي، وتقول بابتسامة عريضة:

ـ اشتقتللُّه.

أهزّ رأسي، أبتسم، أَغبطها على حبّها لزوجها، استمرّ حتى بعد موته، أحاول تذكّر نكهة طيّبة لشيء أحببته في حيّان بعد بدء خلافاتنا، أفشل، تتذكر عليّة فجأة أن عليها الاقتراب من قبره، تقرأ له الفاتحة، وتمسّد رخامَهُ الذي استحال بياضه، تبتسم برقة، تدعو له بالرّحمة، تحادثه بصوت خافت، تعاتبه، لا أعود أسمع صوتها، تنضح الحميميّة من نبراتها، أبتعد، أغار مجدّداً، أفكِّر بأن في هذا السّكون نعمةً ما بعدها، وأنّ حيّان لم يترك أمامي باباً للسّكينة معه وإليه إلّا أغلقه، وأنّه أتى إلى منزلنا البارحة مساءً، لا ليسلّم عليّ، ويهنئني بسلامة العودة، بل ليطمئنّ فقط أنّه مازال بإمكانه إغضابي رغم رحلة استجمامي، وأن بإمكانه أن يجعلني أنتفض من قمّة رأسي حتى أخمص قدميّ حينما يقرر هو فعل ذلك.

لا أدري كيف تستحيل المحادثات بيننا معارك ضارية في لمحةٍ، في طرفة عين، لا أذكر عمّا كان يتحدّث تحديداً، آه، ربّما كان يسخر من السّمرة التي اكتسبتها حين طلبت منه بهدوء أن يطلقني، شريطة أن يترك لي البيت الذي دفنت فيه مال عمري، وشاركت في بنائه وتأثيثه. قلت له كلّ ما تبقّى غير ذلك هو لكَ، لا أريد منكَ شيئاً، حتى النفقة لا أريدها، لكن تترك منزلنا هذا.

ابتسم بلؤم، وأجاب وهو يصرف بأسنانه:

ـ لن أعطيكِ البيت حتى لو رجعت إلى رحم أمّك. انقهرت. انصرف هو بعد أن داعب خدّي وهو يغادرني. عليّة تقترب مني مجدّداً، أنهت حديثها مع المرحوم، وعادت إليّ، أمسكتني من كتفي اليسرى، وحاذتني في سيري البطيء.

ـ بلى، بلى لا أحد غيرها يستطيع رفع ضغط دمي، هي مقصوفة الرّقبة زوجة بكري وحبيب قلبي عماد، الولد الذي أحببته أكثر من ضياء عينيّ. أتمم:

ـ إنّه رجل كبير وليس ولداً.

ـ يعني حين كان، وحدها الملعونة تستطيع رفع ضغطي وضغط كل من يقترب منها.

ـ أهمس:

ـ سارية؟

لا تسمعني.

ـ وجهها الأصفر يصبح كالحامضة المصفرّة، بمجرّد أن أراها ينخضّ دمي، يفور، أغلي في داخلي، لا شيء يستطيع عندها تهدئتي، تتحدّث مع زوجها، ابني، وكأنه ولد صغير، تقول له إذهب وتعال، خذ واجلس وقل ولا تقل، ولولا الحياء لكانت طلبت منه أن يخرس، ويسدّ بوزه نهائياً، عليه أن يعمل ويأتيها بالأموال تحشو بطنها الكبير بها، يشتغل كالثور طوال النّهار، ولا تريد سماع صوته ولا تعليقاته، حمار كبير، صدقيني ابن اختك هذا حمارٌ كبير، ليس كسائر أخوته، تجلس في

البيت لا عمل ولا شاغل يشغل بالها، ورغم ذلك تطالبه بخادمة تريحها، لكي تضمن لمؤخرتها أن تزداد طولاً وعرضاً وامتداداً، يا عيب الشوم على الرجال، خدمت طوال عمري أسرة طويلة عريضة، ولم أطلب من أحد يوماً أن يساعدني، يا عيب الشوم.

ـ أفهميني ماذا تفعل له حتى يستكين هكذا بين يديها، ها ماذا تفعل له؟

أزغد عليّة من ذراعها، أذكّرها بأننا مازلنا في المقبرة، وبأنّ للمكان حرمته، لو تدري.

تؤشّر بيدها لا مبالية، تعلّق:

ـ نحن نخرج منها، لا بأس، ما بك ضيّقة هكذا؟ لا تطيقين كلمة.

لا أنفعل، لا أنزعج، لا أتحمس مَعَ أو ضِدّ، أرغب أن يتحرّك داخلي لشيء، يعجز داخلي عن الاهتمام بأي تفصيل ممّا تقول. أجيب أحياناً عن بعض ما تسألني، أهزّ رأسي نفياً أو إيجاباً، بتحريكه صعوداً أو هبوطاً، لا يخرج الصّوت من فمي، تضربني على كتفي بخفّة:

ـ ما بكِ؟

لا أجيب.

في السيارة تستأنف الكلام، لم تتعب بعد، تخبرني أنها قلقة اليوم على نيرمين:

ـ لا تعجبني أحوالها، أريد لها أن تتزوّج وتريحني بقى.

فجأة يرتفع جدارٌ بيني وبين العالم، لا أعود أرى أو أسمع شيئاً. تحدثني عن خروجها طوال الوقت مع خطيبها زياد، أمرٌ زائدٌ عن الحدّ.

أقضي وقتاً صامتة، بصري يتملّى دون أن يرى الأشجار على جانبي الطريق. أريد أن أشاهد جمالاً ما، مشهداً مختلفاً، ما ينبغي الاحتفاظ به، وما ينبغي التخلص منه، حيث أبحث في داخلي أجدُ ما يخزي، ما يدعو للخجل، لكن ككل شيء آخر، عش مع الخزي فترة كافية، يصبح جزءاً لا يتجزّأ من ذاتك، تفصيلاً من تفاصيل حياتك. أشعر أن الشباب والمرح قد تسرَّبا مني قطرة قطرة بفعل الضغط الشديد الذي تشكله اللحظات، وهي تمرّ.

الخسارة ليست في الفقد، إنّها في إحساس العجز في نفوسنا، عجزٌ عن أيّ شيء يوقف الخسارة.

عليّة تستمرّ تسأل:

ـ ما بكِ؟

ـ لا شيء.

في داخلي أقول:

ـ كلّ شيء.

ـ اسمعي، فكّرت أن أحسم الأمور هذه المرّة، فأفرض على أخوتها الشباب مساعدتها، نؤمّن الشقة، نؤثثها لها فتتزوج، لن أنتظر هذا الزياد حتى يكوّن نفسه، قد أموت قبل أن يفعل، الدنيا ولعانة حولنا والأسعار كذلك، ولا وقت للانتظار، على أخوتها إذاً، أن يتحركوا، ها ما رأيك؟

ـ كما ترين.

ـ وأنت؟

ـ ما بي؟

ـ ماذا ترين أنت؟ أليست بمثابة ابنتك، لِمَ أنتِ بليدة هكذا؟

ـ أعتقد أن هذا شأنها وشأن زياد، هما من يحسمان الأمور في النهاية.

ـ هكذا إذاً؟

ـ هكذا، ببساطة لا تتدخّلي، هذه مسائل حسّاسة...

ـ كلّه بات حساساً، أشكو إلى رُلى غمّي من زوجة عماد تقول لي هذه مسائل حساسة، أطلب منها أن تحادثها قليلاً لكي تحسّن كلامها مع أخيك، تقول لي هذا إحراجٌ لا معنى له، وأن الكلام لن يغيّرها، وأنت تقولين لي، لا تتدخلي هذه مسائل حساسة، ما حاجتي أنا بعدُ في الحياة؟ والكلّ يرفض تدخّلي، وكلامي وآرائي؟ ها ما حاجتي؟

لأوّل مرّة أرى عليّة غاضبة.

يبدو أنّ الهموم لا تدع أحداً في حاله.

ينبغي أن نبني لها قبراً ندفنها فيه هي الأخرى، الهموم، نرتاحُ عندها؟!؟

أحسّ أني بحاجة إلى رؤية نادية الآن، قد أجد عندها إجابة ما، من يدري...؟

[23]

شكّلنا نادية، وجمانة وأنا مجموعة متجانسة من الصّديقات فترة طويلة من الزمن.

جمعتنا بداية منطقة جغرافية واحدة انتمينا إليها، وعائلات متوسطة الأحوال والمعاش نبتنا في أحضانها.

جومانة كانت فاكهة مجموعتنا، ضاحكة، منطلقة، حيويّة، لا تعرف كيف تستقرّ على كرسيّها إذا جلست. تبدأ بالكلام فلا تترك فرصة للآخرين ليدلوا برأي أو بكلمة، تتدفق الكلمات من فمها سيلاً جارفاً، مضحكاً ساخراً في غالب الأحيان، فينصت الجميع. معلمة للرياضة البدنية، وللرياضة اللسانية، تدرس مادتها في مدرسة البلدة الرّسمية.

لا أحد يستطيع مجاراتها لا في الركض ولا في الكلام، خفيفة رشيقة، لكنّ ملامحها لم تكن جميلة بالمرّة.

تتخذ من هذه الحقيقة مادة للتندّر دون إحراج، تقول ببساطة متناهية:

ـ لا أحد أبشع مني.

ثمّ تردف:

ـ ولا أحد أهضم مني، هه.

أخبرتنا دائماً أنّها لن تجد من يجرؤ على الزواج بها، وعلى احتمال خلقتها طوال الوقت في منزله.

كانت أوّل واحدة تزوجت بيننا.

نادية أستاذة الاجتماعيات في القسم الثانويّ، تدرّسها في ثانوية خاصة بالمنطقة، استقرت فيها منذ بداية ممارستها المهنة، تعتبر ذلك غلطة حياتها، لأنها اكتشفت فيما بعد أنّ التعليم في الثانويات الرّسمية أكثر أماناً، وراحة وتقديراً، وأنّ التعليم في القطاع الخاص هدرٌ سخيفٌ للجهد البشريّ. غلطة كغلطتها مع يحيى. أما أنا فربّما كان حظي المهني أفضل، إذ كنت أحمل إجازة في الاجتماعيات كذلك، لكنني تعاقدت خلال عددٍ من السنوات مع ثانويات رسمية لتدريس المادّة، أنتقل خلالها من واحدة إلى أخرى، وحين أجرى مجلس الخدمة المدنيّة المباراة المحصورة بالأساتذة المتعاقدين مع الثانويات أجريت الامتحان، وفزت بتفوّق، ليتمّ فرزي بعدها للتعليم في ثانوية رسمية مختلطة للبنين والبنات في المنطقة القريبة من بلدتنا، هناك وجدت خليطاً عجيباً من الطلاب، ومن الأهالي الذين يرعونهم، والذين كانت لهم مفاهيم خاصّة عن الحياة، وعن التعليم، اضطررت إلى التعامل معهم حوالى اثنتي عشرة سنة قبل أن يشجعني حيّان، وبعد ذلك يدفعني دفعاً إلى الاستقالة حتى أرتاح من آلام رقبتي، ومن انزعاجي الدائم، وحتى لا يُقال، وهذا هو الأهمّ، إن الرجل زوجي رجل الأعمال الناجح، لا يستطيع الإنفاق عليَّ، أنا زوجته من ماله الخاص، وأنه لا يريحها، ويريح جسدها حتى تتمكن من إنجاب ولي العهد له. لكل هذه الأسباب تركت التعليم، وانصرفت للعناية بنفسي وبالسيد حيّان، وبتحضير جسدي لاستقبال مولود يرفض أن يأتي!

التقيت بحيّان حين كان لايزال أستاذاً للغة العربية في إحدى المدارس الابتدائية الرّسمية، لاحقني بلا هوادة سنة كاملة، رفضت حبّه في البداية، بعد ذلك رحت ألينُ.

بالتأكيد وجدت فيه عندها إنساناً مختلفاً عصاميّاً وذا إصرار، وأعترف أنّه كان جذاباً في ذلك الوقت، ذلِق اللسان، استطاع أن يفرش الدروب أمامي وروداً مختلفة الألوان.

أغواني وأنا بنت العشرين بالحياة الجميلة أحصّلها على يديه المجاهدتين، وبالحبّ الولِهِ يلقي بحنانه طوال سني الحياة حتى (يهري واحدنا الآخر) كما كان يعلن دائماً.

تزوجنا بعد سنتين. كان قد بدأ بدراسة الحقوق في بيروت بعد الظهر، متابعاً قبل الظهر التعليم على طريقته الخاصة، لم أره يصحّح فرضاً أو مسابقة في يومٍ ما، ما أعرتُ الأمر اهتماماً.

ـ عمله، ولا أتدخّل فيه.

بعد ذلك فتح مكتباً للمحاماة في بيروت، ليبدأ ممارسة المهنة دون نجاح باهر، ودون فشل ذريع. استثمر في الوقت نفسه قطعة من الأرض البور التي تركها والده له في بيروت، حيث كان الأخير يعمل في تجارة الحبوب والعطارة والألبان وزيت الزيتون بالجملة قبل الحرب. أرض اشتراها بتراب المال في منطقة الشياح شارع مارون مسك ليرثها زوجي بعده، حارماً أخواته البنات من نصيبهن فيها، مستغلاً ثمنها الذي تضاعف مئات المرّات.

وتحايل فيما بعد على منزل الوالد في البلدة، أرضى أخواته بمبالغ زهيدة، وأنفق على المنزل مالاً كثيراً وسنوات كاملة ليجعل منه بعد ذلك منزل الأحلام كما تخيّله منذ طفولته، وكما راح يعلن بعدها، محوّلاً إياه إلى فندق ريفي جميل تجري في حديقته الواسعة وفي قاعته الداخلية أفراح المنطقة الناهضة اقتصادياً لجملة من الأسباب.

لم يحتج حيّان إلى كثير من السنوات حتى يتورّم رصيده في البنوك، وحتى يكدّس عقارات لا تعد ولا تحصى، كلها مسجلة باسمه، طبعاً كل ذلك بعد أن هجر التعليم، وبعد أن حوّل مكتب المحاماة إلى محطة حقيقية للتجارات العقارية، وقد أيقن زوجي النبيه أنّها التجارة الأكثر ربحاً، والأكثر ضماناً في لبنان بالذات. بلد الطّلعات والنزلات والهزّات والتقلّبات!

[24]

مساء كلّ يوم خميس كنّا نلتقي، نحن الشلّة، نتعشى، وتدخّن نادية النرجيلة، وتدعو بمناسبة وبلا مناسبة على يحيى، بعد أن غدَرَ بها واستقرّ في كندا، بحيث بات الأمر ترنيمة لا بدَّ من الاستماع إليها، والتسلي بها. نتبادل الأخبار والنكات، والحياة، ونستعذب اللحظات التي نقرشها بنكهتها المذهلة في تلك الجلسات.

تزوجت جمانة قبلنا نحن الاثنتين، رغم أننا كنّا نفوقها جمالاً، لكنها وبحقّ فاقتنا بخفّة ظلّها، وبإقبالها على الحياة. تجتذب بسهولة إليها كلّ من يتعرّف بها.

كان زوجها حينذاك موظفاً بسيطاً في مؤسسة الضمان الاجتماعي، واحد من أولئك الذين دخلوا سلك الوظيفة لأنّ لهم ظهراً يحميهم. فعرفوا طريقهم بسرعة، وأثبتوا جدارتهم بطرق شتى. فنشط الرجل اقتصادياً، وأنعم على زوجته بالأموال، فأنعمت عليه بأربع بنات يشبهنها تماماً، استمرت تلد حتى تنجب له الصبي ففشلت. اقتنعت بعد إنجاب الرابعة بنصيبها وقالت: نعمة. واعترفت بالمقابل أنّ مصيبتها بات لها أربع سيقان وتتبعُ ذلك بكركرة صاخبة. تنظر إلينا، وعيناها تلتمعان:

ـ لكنني تزوجت، وأنجبت وهذا هو الأهم، الحمد لله. نعمة.

بعدها تزوجت أنا حيّان، نادية كانت الأخيرة التي قامت بهذه الخطوة، وبعد تردد كبير، ومماطلة ما بعدها.

زواجنا باعد بين جلساتنا، لكنه لم يستطع القضاء عليها، صرنا نلتقي في الشهر مرّة. الشهر الماضي، وقبل رحلتي إلى مارماريس جلست جومانة على الكرسي، امتلأ بمؤخرتها، تأملتها بهدوء وباتزان وقتاً، لم أفهم كيف تدرس مادة الرياضة البدنية، وتحمل في الوقت عينه هذه الكميات من الدهون على مؤخرتها!

حاولت تخيّلها، وهي تقفز وتتواثب، أضحكني خيالي. تفرقع ضحكتها بين شدقيها بصخب حين يحدّثها أحد عن الأمر، تقول:

ـ اللي عجبه.

وتخبط بكفها على مؤخرتها.

البارحة بالذّات هاتفتني، قالت نلتقي على وجه السرعة. لبّيت الدعوة. لأوّل مرّة أراها تكاد تبكي، شيءٌ ما يخنقها. سألتها عن السّبب، قالت نادية. حاولت الاستفسار، لم تجبني، فضّلت أن أكتشف بنفسي. أعلمتني أنّها تريد استشارتي بأمر، بدا لي فيما بعد أنّه هو سبب الخلاف الحقيقي مع نادية.

حين بدأت الحديث عادت إلى طبيعتها العجولة، أخبرتني أن ابنتها مَايا، خريجة الجامعة الأميركية في بيروت AUB والتي نالت إجازة في اختصاص إدارة الأعمال من هناك، حيث تابعت دراستها على حساب والدها فقط ثم توظفت بعد ذلك، وبسرعة قياسية في شركة محترمة وفي زمن تعذّر فيه الحصول على وظيفة. كانت الشركة واحدة من تلك الشركات التي تتولى دولة أجنبية هامّة

رعايتها من بعيد، وتبسط عليها ظلها، وينعم فيها الموظفون لديها ببعض الأعطيات الخاصّة شريطة أن يثبتوا إخلاصهم وتفانيهم بالعمل.

مايا هذه الفتاة المتعلّمة غير الجميلة، ولكن المحظوظة فيما يبدو حظاً يفلق الصّخر، تُحِبّ وتُحَبُّ بجنون، يحبّها دانيال الشاب المسيحي وحيد والديه، يحبها ويتمنى حلول السّاعة التي يجدها فيها مستقرّة في منزله تنيره بوجودها، ويقدّم لها بعدها فروض الطاعة الزوجية، وأمانتها، وأكثر من ذلك هي تُعْلمه أنّها مسلمة، ولا تتزوج إلّا مسلماً، فيخبرها في اليوم التالي أنه مستعد لإشهار إسلامه، فقط حين ترضى به، وتعلن موافقتها الحقيقية على الاقتران به.

تخيّلي فاطمة، أرجوك تخيّلي، وفكري تماماً قبل أن تعطيني رأيك، وقبل أن تجيبيني إن كنا نوافق أم لا، لا تفعلي كما فعلت نادية، جن جنونها، ورمتني ورمت ابنتي بالكفر وبالإلحاد وبكبائر الأمور، وعندما قلت إنّ الإبنة ابنتي، وضعها حساس، لن تجد عريساً في كلّ يوم فهي كما تعرفين يعني، أقول يعني ليست جميلة، صرخت في وجهي بكل وقاحة ولؤم:

ـ طظّ، وبلا ما تتزوج مش أحسن ما تكفر، يه أنت جنّيتِ تماماً، أنت وابنتك اللعينة، كيف تبيحين لنفسك حتى أن تفكري بالأمر، يلّا لا أعرفك، ولا تعرفينني يلّا خلصنا بقى وطردتني، أي والله طردتني من منزلها و... عشرة و...

واهتزّ جسد جومانة بالبكاء، بدت مقهورة حقّاً، تسألني ما رأيي؟ لا أُحِرْ جواباً، المسألة دقيقة في هذا الموضوع بالذات، المكان والزمان يحكمان الحالة، في نهاية الجلسة قلت لها إنّ المسألة تخصّ ابنتها والشاب بالدرجة الأولى وإن عليهما التفكير بالموضوع من كلّ جوانبه.

شعرت أني لم أرضِ جومانة بكلامي، ولم أرح قلبها، ولم أنفس غضبها على نادية، لكنّ جعبتي كانت فارغة فعلاً، أحسست أني أنظر إليها من بعيد، أراها بشكل مغبّش، وعدتها أن أرى نادية، وأن أجعلها تعتذر لها وتطلب عفوها.

وإذاً، كان لا بدَّ لي من رؤيتها...

بعض الأمور لا يسهل تجاوزها، قصدتُ منزل نادية، رغم أني غاضبة منها، لم تحاول رؤيتي منذ عدتُ إلى لبنان، لم أفهم الأمر، انتظرت يوماً، يومين، أيّاماً، ولا خبر منها، في الحقيقة انشغل بالي، ربّما هي مريضة، ربّما ابنتاها تشكوان أمراً، لكنّ حديثي مع جومانة دفع رأسي في اتجاه آخر.

بينما يدي تقرع الجرس، كنت أسمع أصواتاً تتعالى وضحكات، ينفتح الباب، تقف نادية أمامي بكامل صحتها ولباسها، فستان طويل يكاد يلامس الأرض، وحجاب يغطي رأسها، ويرتفع عند مؤخرته بشكل لافت، قدّرت أنه شعرها قد صُفف بطريقة دائرية، لكن لا، تذكرت أنّ شعرها كان قصيراً جداً حين تركتها، وأنا أعرف أنّه لا يطول بسهولة، قلت ربّما.

رغم أنّها بادرت بصوت مرتفع إلى الترحيب بي، كأنها تُسمع الدنيا أني أتيت:

ـ أهلاً، أهلاً فاطمة، تفضّلي يا أهلاً وسهلاً.

إلّا أنّ وجهها الذي أحفظ تقاسيمه عن ظهر قلب، وأعرف أفراحه وأحزانه وانفعالاته وجهها هذا لم يعكس ترحيباً حقيقياً.

في الداخل كان ثمّة ثلاث نساء، كلهنّ يضعن حجابات محكمة، ويتحدّثن بصوت خافت، اختفى بمجرد وصولي، مددن أيديهن للتسليم عليّ بعد أن قدّمتني نادية بـ :

ـ الأخت فاطمة.

اكتفين بهزّ الرؤوس، ومصمصمة الشفاه، كأنهن يأسفن على أمرٍ ما.

جلست.

بدا تماماً أني قاطعت حديثاً منسجماً، عاتبتُ نادية خفيفاً، سألتها عن أحوالها وعن أحوال زوجها والبنتين، سألتها لِمَ لَمْ تتصل بي على الأقل، وقلت لها مبروك ولم أزد.

أجابتني بهدوء أنّ الجميع بخير، سألتني كأننا غريبتين، وكأنها لم تكن تحادثني كلّ يوم كذا مرّة عن الرحلة، وكيف قضيت الوقت وحدي، كأنها لم تكن تعرف كلّ التفاصيل، وكيف سبحت وحدي، وقالت عقبالك. وابتسمت ابتسامة باهتة.

اتسعت عيناي، وأنا أنظر إليها كأني أذكرها بنفسي، وأجبت بحدّة:

ـ لا أعتقد.

تكهرب الجوّ بسرعة، بلمحة، تبادلت الأخوات الأربع نظرات سريعة متوترة، ثمّ أطلقن حكماً فيما يبدو بينهن، تلطفت تلك التي تبدو أكبرهن سناً بسؤالي:

ـ لِمَ يا أخت فاطمة؟

ـ لم أفكر بالأمر.

تكلمت كمن تحادث طفلة غشيمة.

ـ لكن عليك التفكير به، لا تدري إحدانا متى تواجه خالقها، قد تكون الآخرة أقرب إليك من أنفاسك لو تدرين. ثمّ كيف تسافرين وحدك بلا زوجك، شرعاً... قالت ذلك، وقرّبت وجهها من وجهي، كانت هي أقرب إلى أنفاسي من أي شيء آخر لو تدري، وقفت منزعجة. قلت لنادية:

ـ أعود فيما بعد.

لم تستبقني.

لم تعلّق على وقوفي، ولا على ذهابي، انتظرت حتى وصلتُ إلى الباب الخارجيّ، قالت لي، وهي تغلق الباب خلفي:

ـ الله يحميك ويهديك، مع السّلامة.

لم أفهم إن كان ثمة نبرة ساخرة في لهجتها، أم أنا التي توهمّت ذلك. اختلطت الأمور في نفسي وفي رأسي.

خرجت، لكنني التفت بعد إغلاق الباب خلفي أريد أن أتأكد حقاً من باب المنزل، هل هو المنزل الذي قضيت فيه ردحاً طويلاً من عمري أناوش فيه نادية وتناوشني، وترتفع فيه ضحكاتنا وتعليقاتنا وانطلاقاتنا إلى ما لا نهاية. هل هو المنزل الدافئ عينه الذي كنت أهرب إليه من برود حيّان استظلّ في أنحائه ببعض الحنان.

البرودة عينها تعاودني وتسكنني، وتزرعني خواء لا أقوى لا على احتماله ولا على صدهِ عني، شعرت أن قدميّ تقفان على حافة شاهق مهول الارتفاع، وأني أكاد أهوي، كلّ ما حولي يدور ويهوي، السرعة هائلة لا أقوى على استيعابها، عدت إلى البيت بيتي، كان ثمّة ضباب كثيف يلفني كغلالة سميكة لا تسمح لي بالإفلات منها، يداي مغلولتان، رجلاي، كلّ أعضائي ثابتة أعجز عن تحريكها. أشعر بالياس، أمدّ يدي لأمسك كوب الماء أشرب أحسّ أني أجرّ أطناناً أريد تقريبها مني، الثقل هائل، الضغط مخيفٌ على صدغي، وشيء ما لعين يضغط على يافوخي من داخله، يريد الخروج من أعلى رأسي، يسقط الكوب من يدي، المحمول في حضني، أجاهد لأضغط على رقم نيرمين أكثر من مرّة، أسمع صوتها يناديني بعد ذلك بلهفة:

ـ فاطمة ما بك، فاطمة ما بك، أين أنت؟

لِمَ لا تجيبين؟ فاطمة...

ثم يختفي بعد ذلك سمعي...

[25]

أقلقني اتصال فاطمة، لكنني لم أتصوّر إطلاقاً أن أجدها بالحالة التي وجدتها عليها.

كانت متشنجة تماماً، كلّ ما فيها متصلّب مشدود، باتت كأنّها شجرة يابسة سهلة الكسر، يستحيل تحريك أي غصن منها إلا بقطعه، عيناها متسعتان مخيفتان، ثبتتا في اتجاه واحد. ثمّة رغوةٌ بيضاء تنزلق من فمها.

لا أعرف كم صرخت، ولا أذكر أنيّ فتحت الباب للجيران الذين تكاثروا حولي بحيث كدت أضيع بينهم، كلّ ما أذكره أنّ دماغي كان شبه مشلول، وأني كنت ذاهلة، وفمي يردد بلا وعي:

ـ خذوها إلى الجامعة الأميركية.

لا أعتقد أنيّ أعرف الشاب الذي تولّى نقلنا بسيارته الكبيرة، ولم أنتبه من رفع فاطمة، وكيف حشرت نفسي إلى جانبها حشراً أمسك بيدها، أدعكها، أحاول إعادة الحرارة إليها، ومن الذي وضع حقيبتي وحقيبتها في حجري، كلّ ما أعرفه أني رفضت أن أرافق زياداً بسيارتي التي تولّى هو قيادتها، وأني لم أرَ من الطريق سوى وجه فاطمة وسوى خوفي، وأني وُضعت بعدها في مكتب الدخول، والآخرون تولوا إدخال فاطمة إلى الطوارئ، ومنها إلى العناية المركزة، طلبت من زياد عدم تركها.

كان قد مرّ حوالى ثلاث ساعات حين تمكنت من الدخول لرؤيتها، عبر الزجاج فقط، لم يسمحوا لي بالاقتراب منها، سألت عن الطبيب الذي يعاينها، قِيل لي سيمرُّ في صباح اليوم التالي، والحال الآن مستقرة، فاهدئي.

الكلّ يسألني:

ـ ابنتها؟

أهزُّ برأسي موافقة، والدموع تتساقط من عينيَّ، زياد إلى جانبي يحتضنني، يأخذ كفي بين يديه، لكن لا أتوقف عن الارتجاف، قلبي يتوجع، مسكين، خائف على فاطمة حتى الموت، يرعبه رؤية وجهها الشّاحب بتلك الطريقة الهوجاء.

أدعو لها بكل كياني أن تنهض بالسلامة، أحاول أن أقرأ في سرّي ما تيسَّر من الآيات القرآنية التي أحفظ من قِصار السّور، أخفق تماماً ما إن أبدأ بسورة حتى تهرب آياتها من رأسي.

أخاف من مشهد فاطمة، من عينيها المتسعتين، في وجهها الشاحب، أخاف من الوجع الذي يسعى في باطني، ويُفلت مني رغم إرادتي، وينسحبُ تحت حافة الباب الزجاجي السميك، ليقف بجوار فاطمة، يمسك بيدها مجدداً، ويتملّاها، ويتأمل ملامحها الصّفراء صفرة الموت، وأنقبض حين أحسّ بمقدار غلاوتها على قلبي، أنقبض أكثر وأنا أفكِّر باللحظات الأخيرة التي أصابها فيها ما أصابها، ولم أكن حينها إلى جانبها.

أين كنت؟ كنت في أحضان زياد. أكره نفسي، أرذلها. في اللحظة الحقيقية التي تحتاجني فيها لا تجدني. أهزّ برأسي.

زياد يعلن خوفه عليّ، يقول لي:

ـ ما بك تنهارين هكذا، أعرفك قوية، تماسكي. لا أسمعه.

أطلب منه الاتصال بحيّان، وبالعائلة، وبعليّة أمي، وبأصدقائها، وبالدّنيا بأسرها.

ليست المرة الأولى التي تدخل فيها فاطمة المستشفى أعرف، لكن هذه المرّة تبدو أكثر قسوة، دخولٌ مختلف، مشهدها مختلف، ورعبُ قلبي مختلف.

حيّان يحضر متفاجئاً، يعلن انزعاجه لعدم إخبارنا إيّاه قبل الآن، يهتزّ حين يرى فاطمة في غرفة العناية المركّزة.

يقف وقتاً، يتأملها من بعيد، الآلات تحيط بها من كل جانب، دوائر صغيرة بيضاء على صدغيها، تخرج منها أسلاكٌ ممتدة تتصل بآلات ترسم خطوطاً، وتصدر أصواتاً، أسلاك تبدو ملتصقة بأعلى صدرها، قائمة على شرايين قدميها الصّغيرتين، وصفرةٌ هائلة تعلو وجهها.

يضع يديه على عينيه، على رأسه، هل يبكي؟ عليّة تنهار بمجرد أن تراها، تبكي بحرارة، ترى حيّان، تنظر إليه بحدّة، تقول بصوت خافت:

ـ الله يقصف عمرك، قصّرت عمرها.

أنظر إليها بغضب، أعضّ على شفتيَّ. تجلس على كنبة جانبية تبكي بصمت.

ريماس وسائر البنات إلى جواري يعانقنني، يحاولن تهدئتي، والاستفسار عما أريد، أقول لا شيء، فقط فلتتحرّك هذه العقارب اللعينة ليس إلّا. الوقت بطيء في الأروقة البيضاء، كلّ ما حولي استحال فجأة أبيض.

أثوابٌ بيضاء، أيادٍ ترتدي قفازات بيضاء، وشراشف بيضاء وجدارن تماثلها، كلها يفترض لها أن توحي بالسّلام والأمان، لكنها لا تفعل. تستحضر من حولي كلّ الأشباح، وكلّ الشياطين السّوادء تطلّ برؤوسها بمجرد أن يثقل جفناي، أرى أشكالاً سوداء مقززة تسعى حولي، وتحاول الإمساك بي وخنقي، حين أطردها باستماتة، تضحك كاشفة عن أسنان مرعبة بأشكالها وألوانها، وتلتفّ فوراً على فاطمة الملقاة إلى جواري، أستيقظ مذعورة، صدري يعلو ويهبط، وأنفاسي تتلاحق بلا هوادة، يضمّني زياد إلى صدره، يقول، والألم يثقل جفنيه:

ـ ما بكِ، لِمَ لا تهدئين، نيرمين اهدئي.

لا أهدأ، ولا أنام، صدري ضائق، وأنفاسي ثقيلة تئزّ أزّاً في رئتي، ثمّ تعلق في بلعومي وهي في طريقها إلى الخارج.

من منكم يستطيع إعادة عقارب الساعة إلى الوراء؟ أسأل زياداً الجالس بيأس إلى جواري، كانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً، رفع يدي الملقاة في حجره، قبّلها، مسحها بخدّه، وقال لي:

ـ سأزعل منك إذا بقيتِ هكذا، لا أعرفك على هذه الشاكلة. أوجعتِ قلبي نيرمين.

الممرضة تمرّ أمامنا في صالون الزوار، تبتسم بلطافة، يتركني زياد وينهض، يهمس بأذنها، تهزّ رأسها وتمضي. أفتح عينيّ، الغرفة فارغة إلّا مني ومنه، الكلّ مضى، رفضت أنا أن أفعل، وبقيَ زياد معي.

بعد قليل أتت الممرضة، ناولتني كوباً فاتراً، قالت إنّه منشط، شربته، اكتشفت أني كنت شديدة العطش، وتذكرت أني لم أشرب شيئاً منذ السابعة مساءً.

احتضنني زياد مجدداً، وغرق رأسي في قاع سوداء سحيقة، لم تستطع قدماي الوصول إلى أرضٍ صلبة فيها، بقيت أهوي، وأهوي وأهوي، وكلما توهّمت أني وصلت، وأنّ قدميَّ سترتطمان بشيء صلب أو رخو حتى، كان سقوطي يزداد تمادياً وسرعة وحدّة، وأخيراً، أخيراً جدّاً، حركت قدميَّ بقوة، فارتطمتا بشيء صلب بارد.

فتحت عيني أتفحّص ما وقعت عليه، وجدت نفسي ممدّدة على كنبة جلدية بيج، تنتهي بقبضة، حافة، من الستانلس فضية اللون، وزياد يجلس قبالتي على كرسي عادي، أغلق عينيه، التعب يبدو على وجهه، وعلى ملابسه.

نهضتُ، فتح عينيه، اعتذرت لما كان، قبلّني برقة، طلب مني أن أبقى مستريحة، رفضت نظرت إلى الساعة، كانت تشير إلى الثامنة صباحاً، طلبت منه أن يغادر ليرتاح، وبعدها يذهب إلى عمله، أكدت له أني صرت أحسن، واعتذرت مجدداً على ضعفي.

قبل أن يغادر أحضر لي منقوشة، وكوباً من الحليب الدافئ، وفنجاناً من القهوة كنت بأمسّ الحاجة إليها، طلب مني الانتباه لنفسي، ومضى.

كنت بحاجة إلى حنانه في هذا الوقت بالذات لكنني فضّلت مواجهة الموقف وحدي، فكّرت بأنّ عليّ استعادة شجاعتي، ورباطة جأشي، وأنّ فاطمة القوية دائماً، أو التي كانت تتظاهر أنّها كذلك في كلّ دقيقة، ترفض لي أن أكون ضعيفة هكذا، سرتُ باتجاه الباب السّميك الذي فصلني عن حضنها منذ البارحة، نظرت إلى وجهها الشّاحب مجدداً، بدا لي أفضل مما كانت عليه البارحة، تمنيت أن تكون كذلك حقاً.

[26]

إنّه اليوم السّادس لي في المستشفى...

قدّمت طلب إجازة من عملي، قال لي زميلٌ ألتقي به في المكتب أحياناً بالصّدفة، إن إجازتي سترفض لأني مازلت مبتدئة.

هززت كتفيَّ دليل لامبالاتي، وأعلنت:

ـ غير مهم الآن، ثمّة ما هو أثمن أهتمّ به.

حيّان يروح ويجيء، زال هول المفاجأة عن وجهه، يروح ويجيء، ويسأل:

ـ ها، كيف الحال اليوم؟

شيءٌ ما في عينيه يخبرني أنّ لديه كلاماً يحتاج إلى البوح به. عليّة لم تخفِ دموعها، كلَّما دخلت لتشاهد فاطمة عبر الزجاج عادت إلى النواح، وإلى ندب حظها، والقول:

ـ إنّ فاطمة لا تستحقّ ذلك، لِمَ يا ربّي؟

وكأنّها تعاتب، تقول ثمّ تعضّ شفتيها، وتستغفر ربّها. جومانة زارتني في المستشفى أكثر من مرّة، وانطلقت تثرثر، وتحدّث عن حالات مشابهة شفي أصحابها تماماً، وعادوا كالأحصنة التي تجري في السِّباق. تنصحني:

ـ لا تحملي همّها، فاطمة قوية، ستقوم مما هي فيه أفضل من الأوّل، يه ما بك، لا أعرفك متشائمة هكذا؟

الكلّ يسأل ويهاتف ويطمئن إلّا نادية، لم تأتِ، استغربت ضمناً، في اليوم الرابع أرسلت مع أحدهم لفافة أنيقة، فتحتها وجدت فيها مصحفاً كريماً متوسط الحجم مرفقاً مع ورقة كتب عليها بخطّ أنيق:

ـ الله يرحمها، ويرحمنا جميعاً.

توصيني أن أضعها ـ النسخة ـ تحت مخدتها أو قربها إذا سُمح لي بذلك، لم أعرف أأفرح أم أحزن من هديتها. يرتجّ جسدي. وأنا أمسك الكتاب الكريم.

دخلت فاطمة في الـ Coma ، يخبرنا الطبيب أنّ خلايا كثيرة من دماغها قد ماتت، أتلفت، وأنه أجرى اللّازم خلال الجراحة التي تمت البارحة بنجاح تام، نظّف ما نظّف والآن ما علينا سوى الانتظار.

حين أسأله عن الأضرار النّاتجة، يقول لي بابتسام مقتضب:

ـ فلننتظر الآن. أفضّل ذلك.

وعندما أسأله عن الوقت الذي تستغرقه في غيبوبتها تلك يشير بيده إلى فوق:

ـ الله أعلم.

أحاول استدراجه علّه يطمئنني أكثر، أفشل.

في اليوم الثاني عشر جلس حيّان أكثر ممّا يجلس عادة، تلطف بالحديث معي، قبَّلني على جبيني كما كان يفعل وأنا صغيرة، ثمّ أخبرني، وكأني لا أعرف، بأنّ الحياة قاسية، وبأنّ فيها خسائر غير محتسبة، لكنّ ذلك لا يمنعنا من مواصلة المسير.

ابتسمت له من خلال آلامي، وحادثت نفسي: أخيراً سينطق.

أخبرني أنّه سيقيم افتتاحاً بعد خمسة أيّام للمركز الخيريّ القائم في بنايته الجديدة في الوسط، وأنّه لو لم يكن قد وزّع بطاقات الدّعوة منذ عشرين يوماً، أي قبل مرض فاطمة الذي فاجأنا، شفاها الله وحماها لنا، لكنتُ أجَّلت كلّ ذلك، ولكان المركز انتظر، وكلّ شيء ينتظر كرمى لعينيها، لكن الآن، يشدّ على شفتيه، الآن صعب، صعب، دعوات كثيرة أرسلت، ووصلت إلى رؤوس كبيرة، كبيرة ووزراء، وإعلاميين وأصحاب مصانع وو... تعرفين طبعاً، أنتِ أدرى مني بهذه الأمور، ومؤكد انتهى إلى سمعك أنّ اسمي يتم تداوله كأحد المرشحين للوزارة الجديدة، الوضع حساس بالإجمال، يا ستّي أريد منك بالإجمال التعامل مع الموضوع برأس منفتح طبعاً، وهذا ما أعرفه عنك، ويا ستي إن كانت فاطمة قد قامت بالسّلامة حتى ذلك الوقت، هي ـ عندها ـ من سيباشر الافتتاح، ويقصّ الشّريط الأحمر، وإلّا فأنت من سيفعل ذلك بالنيابة عنها، أنت وزياد ستكونان أوّل الحاضرين، أليس كذلك؟

لا أدري إن كانت نظرتي قد استمرت إليه طويلاً، وقتاً اضطره إلى النظر في ساعته مرّتين قبل أن ينهض بارتباك، ويقبّلني مجدداً على جبيني، لينصرف بعدها بقامته المديدة التي لم تنحنِ بعدُ.

يستطيع المرءُ أن يشعِل الآخر بهدوء، يُضرم فيه النِّيران أحياناً، وهو يحدّق إليه بعينين متسعتين، لا يخجل.

كان رأسي يفكر بسرعة وبجنون، كيف أردّ ولو صاعاً بسيطاً ممّا كان يكيله هذا الرجل لفاطمة، لو كانت فاطمة إلى جواري لأحسّت بالغضب الذي يتأججُ في صدري، ولفكرت ربّما بالطريقة نفسها التي أفكِّر الآن بها.

عند الواحدة ظهراً سألتني الممرضة إن كنت أريد الدخول لرؤيتها، أجبت: نعم.

أعطتني الكمامة والروب والقفازات، غطيت شعري، ودخلت، وقفت إلى جانب سريرها، لم تكن المرة الأولى التي أدخل لرؤيتها، وحدي سمح لي برؤيتها عن قرب، وهذه هي المرة الثالثة التي أفعل.

وجدت وجهها أكثر نحولاً من ذي قبل، وأكثر شحوباً، تمنيت لو تفتح عينيها لتراني قليلاً، لأراها قليلاً وهي تنظر إليَّ من جديد، فأحسُّ أن الدنيا بخير، وأنّ الحياة بأسرها لاتزال بخير.

تسمّرت عيناي على عينيها المغلقتين، خيّل لي أنّ رموشها ازدادت طولاً وكثافة، انزلق بصري على يديها اللتّين بدتا الآن معروقتين شفافتين، ظهرت الشرايين الرقيقة خضراء واضحة، ثمة بُقعٌ خضراء تتوزع على جلدها الرقيق الأبيض جرّاء الحقن التي تخترقه، انحنيتُ، قبّلتُها بلطف، خفت أن أوقظها من منامها، رفعتُ أناملها الرّقيقة، قبّلتها واحدة واحدة، خيّل إليّ أني أسمع نبض قلبها، خيّل إليّ أنّها تحرّكها، وأنا أضعها على الفراش مجدداً، لا أدري، لم أعد أرى جيّداً، طبقة كثيفةٌ من الدمع راحت تغشي بصري،، أغلقت جفنيَّ عسى أن يرتاحا من ثقلهما، انسابت الدّموع على خديَّ

وعلى صدري، ابتعدت سريعاً لئلا أصيب فراشها بشيء كما أوصتني الممرضة أكثر من مرّة، ارتدَّ رأسي إلى الخلف، تصميم هائلٌ نبتَ في قلبي، وشبح حيّان يتراقص أمام عينيّ.

[27]

الزينة التي انتصبت من أوّل الشّارع إلى نهايته كانت مذهلة. زينة بديعة الألوان والأشكال، فيها ما هو جميل ومختلف، مؤكد ليس حيّان من نسقها.

رغم أنّ البناية لم تكن قد انتهت بعد، إلّا أنّ المحالّ التي جاورت المركز الخيريّ المنوي افتتاحه بدت كلّها مغلقة بشكل أنيق، نظيفة لماعة وناجزة، كلّ شيء في المشهد ظهر مرتباً، منسقاً وراقياً.

على ما يشبه التراس أو السّاحة الممتدة أمام البناية طاولات مزينة وكراسٍ مرصوفة، عليها جميعاً أغطية من الساتان، زرقاء زرقة عميقة، زرقة لون البحر التي يُعجبُ بها حيّان إعجاباً شديداً، في الوسط جعلت باقات من الزهور البنفسجية ذات عروق خضراء ملتفة ومنسقة بشكل بديع منسجم مع لون الساتان.

خدم يروحون ويجيئون، يرتدون بزّات رسمية سوداء، يضفون طابعاً هاماً على المكان، يضعون قفازات بيضاء بأيديهم، يتولون تقديم أكواب الشّراب على أنواعه، كلها (Fraîche) طازجة معصورة ومحضرة خصيصاً للمناسبة، كما قال لي أحدهم حين اعتذرت عن الشرب. صوانٍ رصّت عليها قطع من الحلوى، قطع كاتو متنوعة صغيرة شهية المذاق، تتلاءم مع الأفواه المميّزة التي ستتولى التهامها.

وجوهٌ كثيرة وقامات، وجوه كثيراً ما رأيتها عبر شاشة التلفاز، وعلى صفحات المجلات، وأحياناً على صفحات الجرائد قرأت أخبارها وتصريحاتها، كلّها ضاحكة ملتمعة، البعض منها يبدو وقوراً جاداً على درجة هائلة من الانشغال والأهمية، بمجرّد أن يَلْمَحَ حيّان، أنْ يسّلِمَ عليه، يعلو ضحكه، ويشتدّ ابتسامه كأنّه يُسَلِّمُ على رئيس الولايات المتحدة للتوّ واللحظة.

يحييني حيّان كلما عنّت منه التفاتةٌ إلى الموضع الّذي يضمني وزياداً، أرفع كأسي محيّية، أريده أن يطمئن.

سألني حين وصلت عن فاطمة، أجبته:

ـ هي اليومَ أفضل.

ـ عال، عال.

وراح يفرك يديه، أثنى على أناقتي، وعلى أناقة زياد قال له، وهو يتفحّص بزّته الرّمادية:

ـ براڤو، ذوق نيرمين عظيم.

بصقتُ بعد أن أدار ظهره، استاءَ زياد.

الاحتفال كان أنيقاً قصيراً، تقدّم أحدهم، تحدّث حوالى عشر دقائق عن حيّان، رجل الأعمال العصامي الناجح، النشيط الذي لا يهدأ، والذي بات في زمن قياسيّ دعامة أساسية من دعائم الاقتصاد الوطني في البلاد. وهو صاحب القلب الكبير كذلك الذي لا ينسى إطلاقاً أهله وأبناءَه من بني وطنه المحتاجين للرعاية، فافتتح لهم هذا المركز الخيريّ، وستُعلن فيما بعد آلية الاستفادة منه

على وجه الدّقة، وما هي شروط هذه الاستفادة، وأي عناصر تتوخى بالضبط! وطبعاً تمّ توجيه الشكر والترحيب باسم وزير المستقبل السيد حيّان ـ وهنا علا التصفيق الحارّ ـ لكلّ من ساهم، ويساهم في أنواع التبرع الذي يغذي مثل هذا المشروع الهادف، وأعلن أنه سيتمّ توزيع بطاقات خاصّة بهذا الشأن، عليها أرقام الأرصدة التي تستقبل التحويلات المالية، أو الودائع العينية التي تخضع لآليات أخرى يتمّ إعلام أصحاب الشأن بها، ثمّ طلب من المحسن الكبير صاحب المقام الرّفيع السيّد حيّان التقدم من المنصّة.

وقف حيّان، ووقفت إلى جواره صبيةٌ حسناء جميلة تضاهيه طولاً وقامة، أعلن شكره لكلّ من حضر، ولكلّ من اعتذر عن الحضور، وقال إنّه لا يرغب في هذه الأمسية الجميلة أن يكثر من الكلام. فأسلوبه في الحياة بيّنٌ واضح، وهو الأعمال لا الأقوال، وشكرَ، فضجّت السّاحة بالتّصفيق، والاستحسان، رفع يده فصمت الحاضرون، أردف:

ـ أستغلّ هذه الأمسية لأقدم لكم هذه الجميلة الفاتنة زوجتي نيكول، كتتويج لكلّ الأعمال الجميلة الرائعة التي أنجزتها، إنّها إنجازي الأهم، احتضنها، وقبّلها. علا التصفيق والهتاف مجدداً:

ـ براڤو، براڤو، مبروك.

انفجرت أضواءٌ وألوانٌ وأصوات، راحت المفرقعات تعلو في سماء الوسط من مختلف الأنواع والألوان والأشكال، أعترف أني كنت سأجدها رائعة، لو كان مزاجي رائقاً، انسابت موسيقى ناعمة جميلة، بدأ عازف كمان يبرز ويتقدّم شيئاً فشيئاً، يعزف وهو يتمشى بهدوء بين الحضور لحناً جميلاً رقيقاً، مؤكد لا يلائم دخيلة حيّان.

فُتحت زجاجة شمبانيا على شرف المركز والعروسين، اللذين قاما بقصّ الشريط، ورفعت الكؤوس عالياً وانحنت الرؤوس تؤدي التحايا والمجاملات.

استمرّ الحفل حوالى السّاعتين، كنا أوّل المنسحبين، باركتُ لحيّان وقبّلته معربة عن سعادتي به.

شكراً، قالها مندهشاً، وشدّ على يدي بحرارة وبانفعال معلّقاً:

ـ كنت واثقاً دائماً أنّك فتاة رائعة، شكراً، شكراً لك.

في آخر الشّارع الطويل الذي شكّل الممر الوحيد للوصول إلى ساحة الاحتفال، وقفت مع زياد بجوار صندوقين صغيرين، وكلما خرجت سيارة من الحفل، سحبتُ كتيّباً صغيراً أنيقاً قد لفّ بشريط، وسلّمته إلى من في السيارة ممن كان حاضراً قائلة: إنّها هدية حيّان.

أشرفت بنفسي على توزيع كلّ النسخ التي قمت، وبمساعدة زياد طبعاً، بإعدادها وبطباعتها على وجه السرعة، جعلت فيها صوراً متعددة لفاطمة، الصّورة الأولى كتبت تحتها [زوجة حيّان الشرعيّة]، اخترت صوراً أخرى تظهر فاطمة أيام حيويتها، الصورة الأخيرة التقطتها لها بالمستشفى، كتبت تحتها [فاطمة اليوم بفضل المحسن الكبير حيّان]، وقمنا بطباعة أقصوصة من الأقصوصتين اللتين كتبتهما فاطمة، ولم تتسنَ لها طباعتهما، النسخة الأخيرة من النسخ الثلاثمئة التي وزعتها أرسلتها مع واحد من الخدم إلى حيّان.

وهذه هي الأقصوصة.

فارس أحلام... في بلاد العجائب

كان يا ما كان، في حينٍ غافلٍ من الزمان، كان ثمّة بنتٌ شوي مهضومة، شوي حلوة، يعني بالعربي الفصيح بنتٌ لا بأس بها، متوسّطة الجمال، قد أنهت دراستها الجامعية الفلسفيّة، فبات يحقّ لها أن تحلم شأن كلّ فتاة ناضجة بفارس الأحلام... فارس سيملأ عليها حياتها، وينقلها من حال التّبعية إلى حال الاستقلال والسّعادة والحرية.

وبما أنّها كانت تحيا في بلاد تشبه بلاد اللّبن والعسل بحلاوتها، وبتدفّق خيراتها، فقد كانت تفتتح صباحها كلّ يوم بهذا الدّعاء الذي ابتكرته لها أمّها منذ ما قبل ولادتها، ثمّ عملت على تحفيظها إيّاه حرفاً حرفاً، مذ غادرت نعومة أظافرها، وبلغت الرابعة عشرة من عمرها، حتى بات أهمّ ما في نهارها، تتشاءم أشدّ التشاؤم إذا حدث يوماً، وتأخرت في تلاوته.

وهو دعاءٌ قيم ذو شقين، الأوّل منهما حمديٌّ، تشكرُ فيه ربّها من خلاله لأنّها استيقظت بعد منامها، إذ الحياة نعمةٌ هائلة كما علّمتها أمّها، عليها أن تشكر الله يوميّاً بشأنها، تشكره لأنّه منحها أباً رائعاً سنياً، وأمّاً جميلة رقيقة حريصة على مصلحتها، وتشكره لأنه خلقها كاملة غير منقوصة إصبعاً، ولا رِجلاً، ولا عيناً، ولا شعرة واحدة، فهي لم تفقد عضواً، ولا شعرةً، خلال رحلتها المبهمة من رحم أمّها المظلم حيث وردت ماءً حاراً متدفّقاً، حتّى خروجها إلى عالم النّور والأحياء والأجلاء.

أمّا الشقّ الثاني فمطلبيٌّ صِرفٌ ـ بات يحقّ لها طبعاً ـ حيثُ تروح تطلب من ربّها بما أنها شكرته أولاً أن يستجيبَ لها بسرعة وبأمانة، فيهبها عريساً: متوسط الجمال، متوسط العمر، متوسط الفهم، متضخم المال، متوّرم السّلطة!

وبما أنّها فتاةٌ طيّعةٌ، راضيةٌ مرضية، تُحسن الاستجابة لمطالب أمّها، فتكرّر دعاءَها بأمانة وبحرارة كلّ صباح، وعلى مدى اثنتي عشرة سنة، لم تغفل خلالها لحظةً عن الدّعاء بحرارة وبإخلاص، فقد مَنَّ الله عليها أخيراً، وقد بلغت السادسة والعشرين، بفارس الأحلام المنتظر الموسوم وَسْماً دقيقاً بالمواصفات التي كرّرتها، وألحت عليها، فبدا وكأن كلامها قد نزل حفراً وتنزيلاً، وأنّه وقع موقعاً حسناً في ذات العلي القدير، فإذا بالعريس الموعود، متوسط الجمال إذ لا يشكو إلّا من عَرَجٍ طفيفٍ في قدمه اليُمنى لا يكاد يُلحظ، ومن «حولة» خفيفة في عينه اليُسرى ـ فضّلت اعتبارها حولة حُسن ـ لولا أنّها حالت أحياناً دون استمتاعها بنظراته الولهى الموجّهة إليها، فقد كان يُخيّل إليها، نقول يُخيّل ليس إلّا، أنه ينظر إلى حائط الصّالون حين ينظر إليها. هذا بالإضافة إلى تلعثم لسانه، وهي سرعان ما تجاوزت هذا الاخلال بالمواصفات المطلوبة، فالله أعلم بالنيّات كما أخبرها، وهو كان ينوي دائماً التّصويب المركّز إلى عينيها، فقلبها بالتالي، لا إلى الحائط، ففضلت الانتباه إلى النية بدل التحديق إلى المظهرية. والعريس يحبّ قول الشعر متغزلاً بها لو استطاع إلى ذلك سبيلاً! أمّا لناحية العمر، فقد كان الفارس في الخامسة والثلاثين بالتمام والكمال حين تقدّم لخطبتها؛ وقد تناهى إلى معرفتها أنه متوسط التعليم، إذ لم يفلح رأسه الضيق الجبين في استيعاب الأسس المعرفية الأولى، فأصرّ على الخروج المبكر إلى الحياة باعتبارها المدرسة الأهم، كما أخبر بذلك والده مراراً وتكراراً، إلّا أنّها لم تتأكد إن كان متوسط الفهم أو كان معدومه ـ ظلّت في حالة تشكيك وتفكُّر مدّة ـ بما أنّه لم يكن يعلّق على أيّة مسألة تستفتيه حيالها،

سواء كانت اجتماعية، أو سياسية أو فكرية، إذ تسرح نظراته إلى الأفق البعيد، ولا يعود يبصر شيئاً أمامه، وحين تُظهر غضبها يسارع إلى استرضائها بالقول:

ـ أريد أن أسمع رأيك يا حبيبتي، السّتات أولاً، ألم تقولي ذلك البارحة، يه، ما بك؟!

حيّرتها المسألة فترة، لكنها ما لبثت أن ألقت بها خلف ظهرها، بذاك نصحتها والدتها المسرورة بالعريس الذي طال انتظاره.

وحصل أنّ هذا العريس، وبعد شهرين، شهرين فقط من إعلان خطوبة الفتاة الرّصينة عليه، وكانت البلاد في ورشة وخضّة سياسية لم تعبأ بها، إلّا حين وصل الخضّ بحركتيه إليها، إذ سمّي خطيبها وبقدرة قادر، وزيراً في الحكومة المتعجّلة التي تمَّ تشكيلها، وتمَّ اختيار أعضائها استناداً إلى موروثاتهم أو إنجازاتهم المجيدة. لم تسأله تفصيلاً عن الموضوع ولا سيما في الفترة الأولى التي بدا فيها ذاهلاً عن نفسه وعنها. إذ فقد تركيزه تماماً، وازداد مسار عينه اليسرى انحرافاً، نصحتها أمّها بالتريث، وبالوقوف إلى جانب عريسها الذي ارتسمت الدهشة الدائمة على وجهه، فارتفع حاجباه فجأة، واتسعت عيناه قليلاً، مما أكسبه مشهداً مهيباً يوحي بالتفكّر، على الأقل في نظر من يرونه للمرّة الأولى. وبما أنّ الأم شديدة الكياسة والذكاء، فقد نصحت ابنتها بملازمة عريسها في الفترة الأولى من توليه مهامه الجديدة، فأوحت إليها بضرورة تعجيل توقيت الزفاف الموعود، لأنّ في ذلك:

ـ إراحة لذات الوزير الجديد المعذبة في حبها، فيصفو جسده، وبالتالي ينجلي ذهنه، فيصبح بذلك أكثر استعداداً لاستقبال التحولات الخارجية الجديدة الشديدة التأثير في كيانه لتسارعها، ولتوالي وتيرتها بشكل غير متوقع. فيلبي بالتالي تحولاته الداخلية أولاً التي يحرّكها حُبّها، وحبّه المقابل لها.

ونصحتها كذلك بأن تتغاضى بعد ذلك عن مسألة إحراجه بالنسبة لعرجه، ولحولِه تحديداً، وأن تقنعه أنّ حولة الحُسن اليسارية هذه، إنّما هي سمةٌ جماليةٌ هامةٌ، عليه المحافظة عليها، والمباهاة بها إذا أمكن، وعدم التلاعب بمشهديتها بعملية تجميلية أو بسوى ذلك، وأنّ العظماء، العظماء حقّاً قد ابتلوا جميعاً بعلامة فارقة ضمنت لهم امتيازهم، وافتراقهم عن سائر مخاليق الله الذين يمشون في الأرض مرحاً... وذكّرتها على سبيل المثال بقصر قامة نابليون وبعظيم أفعاله. عساها تعتبر. اقتنعت الفتاة، وكان لثقافة والدتها الفضل الأوّل بذلك.

وبما أنّ المرأة أمّها، امرأة مجربة حكيمة، فقد أعطت نصائحها العلية ثمارَها ناضجة دانية، وتحوّل زوج ابنتها صهرُها العتيد، الوزير الجديد، بعد أسبوعين اثنين فقط من الزواج إلى ما يشبه الفرس النشيط في ساحة السّباق.

حيث بدا الرجل فجأة أكثر ارتفاعاً وامتداداً، وازداد صدره رحابة واتساعاً، واستطال شعرُ رأسه وغزر، مما اضطره إلى قصّه مرّة أسبوعياً احتفاءً بالمنصب المهيب، وقد كان يقصّه مرّة كلّ أسبوعين سابقاً، وانطلق لسانه الذي كان متلجلجاً حين يزدحم الكلام في رأسه، فأصبح فجأة ذرب اللسان، يتحدّث بلا انقطاع على الفاضي والمليان.

واكتشفت زوجته أن لديه مقدرات عقلية، بعد اكتشافها مقدراته الجسدية، وشجعتها أمّها على الغوص عميقاً عميقاً عساها تحصل على المزيد من الاكتشافات، وهكذا كان مما ثبّت إيمانها بنظرية النشوء والارتقاء الدّاروينية، وراحت تحثّه على الحديث مطوّلاً عن ذاته، عن أسرته، عن

طفولته، عن مشاكساته، عن جرائمه الصغيرة السرية ـ إذ لكلّ منّا جرائمه كما أكّدت له، واضطرت أن تقسم حتى يطمئنَّ لقولها، وحتى تورقَ الثقة في ذاته حيالها ـ تلك التي كان يخبئها عن أهله وأخوته، وكلّ خلانه، عن علاقته بجسده، بأعضائه المكشوفة والحميمة، بصويحباته، إن كان له مثلهن، فهي اكتشفت بكارته تماماً كما فعل هو، واحتملت حماقاته في هذا الميدان، وتجريبه الغبي لجسده ولجسدها، إلى أن اكتسب شيئاً من الثقة بذاته، إذ هي أوهمته بتفوقه في ساح الفراش، وبقدرته الهائلة على المؤانسة والإمتاع في عالم الفرج والانفراج، وفي عالم السّاق والكاس والطّاس.

وبعد أسبوعين، بعد ثلاثة أسابيع على ما تعتقد، راح خياله يكبر ويتوّرم، وانطلق يحدّثها عن مغامرات رجولية، كانت له مع نساء خرافيات بروعتهنّ، وبانسيابهنّ وبتهافتهنّ يحدّثها ولهاثه يشتدّ، ولعابه يسيلُ، ويزداد حول عينه، فلا تعودُ تحظى بنظرة من لَحظهِ، لكن لا بأس، التجربة مشجّعة كما تقول أمها، والرّجل بدأ يكتسب ثقة موفورة بذاته، ثقة تخوّله اقتحام المجلس المخيف الذي سمّي له فجأة، على غير توقع، وبدون انتظار، ولكنّ للأقدار مشيئتها كذلك، ولا سيّما حين ترسم الحظوظ في بلاد السّحر والعجائب، وبلادها كما قالت لها والدتها أكثر من مرّة مفتوحة على كلّ شيء، منفتحة على الجحيم، وعلى النّعيم، لكنّ الذكيّ، والذكيّ فقط هو الذي يستطيع اقتحام الأبواب المغلقة، وأنّ عليها أن تحمده مجدّداً، وكثيراً، لأنّه في ما يبدو قد أرسل لها مفتاحاً ذهبيّاً لواحدٍ من تلك الأبواب المغلقة، هذا المفتاح السحريّ هو زوجها الطيّب ذو القلب الحنون، الذي أحبّها وحدَها من دون نساء الأرض، أو هو كما حاولت أن تشبهه لها: المادة الخالصة غير المشذّبة، التي عليها هي، وهي وحدها دون العالَمين، تقع مسؤولية صقلها وتنعيمها، وتسويتها، وإزالة زوائدها، حتى تتمكن من إيلاجها في فتحةٍ من فتحات النّعيم المنتظرة لقدومها، وقدوم أمّها الرّقيقة الحريصة، برفقتها طبعاً، ويدُها الحازمة المباركة على ذراع ابنتها!

وفي سهرة من سهراتهما الهنيّة راح يروي لها بعض مغامرات الليلة السابقة، وكيف شارك في صفقة كبيرة ـ أكبر ممّا تتخيّلين ـ ويغمز بعينه اليسرى، أصبح من خلالها ملّاكاً مساهماً في عقارٍ هائل يكاد يكون بلدة، في جنوب البلاد ـ وكيف وقّع على صفقة، ها، يزوم، وهو يتحدّث عنها، ويقلب شفتيه، لا يدري بالتحديد ما هي، لكنها صفقة هامّة كما قِيل له، وتحتاج إلى توقيعه، إلى توقيعه فقط كي يعبر ما فيها إلى البلاد... لكنّ أطرف ما حدث معه في سهرته الفنية، هو استماعه للرجل الظريف المرافق للوزير الزميل الذي قضى الليلة في قصره، والذي يبدو أنّ الوزير يستظرفه جدّاً.

أخبره الرّجل أنه المرافق الأمين له في غدواته وروحاته، وأنه يكاد لا يخفي عنه شيئاً من خصوصياته. يعني ـ بينهما ما يشبه وحدة الحال ـ تركه يتحدّث على سجيّته بعد فترة من دخوله، سأله عن آخر زيجاته، فانطلق الآخر يتحدّث بطلاقة ما بعدها عن العروس التي افترشها قبل أسبوع على سريره، والتي استمرّ يتحايل عليها أوّل الليل ظاناً أنّها خجلة منه، فإذا به يتفاجأ بعد أن تمكن من ركوبها، بعدم عذريتها، فقام بضربها ضرباً مبرّحاً، وحين واجهها بالاستفسار، فتحت عينيها في وجهه، قائلة:

ـ ظننتك غشيماً.

فما كان منه إلّا أن ركبها مجدداً، وقام بمجامعتها، ليرمي عليها بعد ذلك يمين الطلاق.

كان يحكي لها التفاصيل بدقة، مُرفقاً إيّاها بتعليقات الوزير الزائر المستمتع حتى قاع نخاعه بالحديث الظريف، والمستحسن لحماسة مرافقه ولنخوته، ممّا دفعه هو الآخر إلى إبداء الحماسة نفسها، وإلى الإحساس بالمرح نفسه الذي كان يشعر به الوزير العتيق المعين وزيراً للمرة الرابعة.

هكذا اكتشفت الزوجة الهنية كيف يقضي زوجها الوزير أيامه ولياليه المسلية النديّة. وكرّت الأيّام...

تمّت الأقصوصة.

استغرق توزيع النسخ حوالى ساعتين، جلسنا بعدها في السيارة نتحدّث، ثمّ أوصلني زياد إلى المستشفى، بعد أن رفضت العودة إلى البيت، كنت قد بدأت أحسّ أنّ المستشفى هي بيتي الآن، السّاعة قد شارفت على الثانية بعد منتصف الليل، حيّيت بعض من كان ساهراً من الممرضين، الممرضة القائمة على العناية بمريضتي لم تكن بينهم، نظرت من الزجاج إلى الداخل كانت هناك، كنت قد حملت لها بعض الحلوى التي أصرّ الخادم على تقديمها لي وفقاً لتعليمات حيّان، الضيافة للجميع.

هي لطيفة، احتفظت لها بها. ألقت عليّ تحية المساء عند خروجها. قالت:

ـ تبدين اليومَ أفضل.

ـ فعلاً؟

سألتني عمّا إذا كنت أرغب بالدخول ورؤية فاطمة؟

ـ لو سمحت.

جهّزت لي الملابس المعقّمة.

دخلت، الغرفة تعبق بروائح الأدوية والمطهّرات الطبية التي يدفع ثمنها حيّان.

اقتربت من سرير فاطمة المعلّقة بين الحياة والموت لا أدري لِمَ أحسستُ وأنا أقترب أنّها تشعر بخطوي، وأنّها تبتسم لي، الوجه الشّاحب عينه، ازداد نحولاً وهزالاً، وبُعداً عن الحياة، فكّرت بأنها قد بدأت رحلة لا عودة لها منها.

فكرت بأني أحبّها كما لا أحبّ إنساناً آخر في الحياة، حتى أمي، حتى زياد.

نظرت إلى يديها المعروقتين، أقبلهما الآن، أحسّ بيسراها على خدي، أحلم بها تداعبه مثلما كانت تفعل وأنا صغيرة، تلاعب خصلات شعري وتمسّدها، وتغني لي، أتمنى لو أعرف ردّة فعلها على ما قمت به الليلة. أتمنّى أن أكون قد أسعدتها ولو قليلاً، كما أتقنتْ إسعادي في الحياة، أرقب وجهها الهادئ، لا أعرف مع من هو متصالح هكذا في هدوئه مع الموت أم مع الحياة؟!

أمسح دمعات تنساب على خدي، تفلت مني لتلامس الفراش، أتركها، ألمح ظلّ ابتسامة تنسربُ إلى الملامح، تغزو أسفل العينين، تتلألأ على الجبين وتعتلي الشفاه، أقبّل جبينها البارد، وأغادر المكان وعيني تحدّق إلى فراغ.

28

هذا المطرُ المستبد الّذي لا يريدُ أن يتوقّف....

الدّنيا بأسرها باتت رطبة مبلّلة، كلّ عصافيرها، كلُّ شجرها، جذورها، أطرافُ أوراقها، ألوانُها، حبّاتُ التّراب تحتها.... ما عاد بإمكانها شرب المزيد! تشرقُ الآن بكميّات المطر الهائل الّذي ينصبّ انصبابا كالمزاريب، حبّاتٌ كبيرةٌ ثقيلة تهوي على رؤوس البشر والأشياء وأحجار المباني... كلّ ُ شيء غرق في المياه، شهرٌ كاملٌ: ثلاثون يوماً جرّت معها ثلاثين ليلةً والمطر لا يتوقّف، لا يُهادن، ولا يرتاح، ينصبّ على الرّؤوس، كأنّ كلّ ما في السّماء، ومن في السماء، إنْ كان ثمّة مَنْ هناك، قد شمّر عن ساعديه، وراح يملأ دلاءً كبيرة هائلة، ويدلقها دلقا على منْ في الأرض.

أدوسُ بقدميَّ على الرّصيف، تعلو طبقةٌ من المياه حول الحذاء، ترتفع معوّضة عن المساحة الّتي احتلها كعبُه، أحسُّ بالبلل حتّى ولو لم تصل القطراتُ إلى قدميّ، أشعرُ أني مبتلّة حتّى القاع، حتّى العظم، حتّى النّخاع الشّوكي الّذي قيل إنّه يستقرّ في مكان مكينٍ مكين، يستطيعُ البلل أن يخترقَ الحجبَ، ويصل إليه.

أقفُ إلى الزّجاج بعد أن أصل، وأنا أعدُ نفسي أنْ ربّما بعدَ قليلٍ تخفتُ حدّةُ السّيول، لكنّ زخّات المطر تزداد، الحبّات تتوالى بقوّة، ترتطم بالزّجاج ثمّ تتشظّى و تتناثر مصدرةً أصواتاً كأنّها الولولة الخافتة، ربما تولول لأنّها وصلت إلينا! هالتَها المفاجأة! ترتفعُ أصواتها، تصبح أكثر حدّةً، تبدو في لحظات كأنها الرّصاص، ألاحظُ عصفوراً يطيرُ بسرعة كبيرة من شجرةٍ إلى أخرى، هو الآخر يهربُ بريشه المبتلّ، أنتقلُ بنوع من الفضول إلى النّافذة الأخرى، ألاحقه ببصري، أريد أعرفُ أين استقرّ؟ أتنبّهُ إلى كونه قد تخفّى بظلّ ورقة كبيرة من أوراق شجرة الكريب فروت التي استقرت في الحديقة. دون إرادة مني يبتسمُ قلبي، كلّ أحدٍ، كلّ مخلوق يستطيعُ بطريقة أو بأخرى أن يجدَ مأواه، لكنْ هل هو راضٍ؟ هذا هو السّؤال؟

سأحاول أن أسمعَ تغريده لكي أطمئنّ، أُمضي وقتاً طويلاً محاولةً الإصغاء... لا شيءَ. سقسقة المياه تزدادُ من حولي، أنفاسي تسبّبُ ضباباً ناعما على الزّجاج الّذي أكاد ألتصقُ به، وأنا أتفحّصُ الخارجَ، المطرُ لا يريدُ أن يتوقّف، ربّما أفلتَ الزّمام، أمطارٌ أمطارٌ تتوالى، والبللُ وصل حتّى إلى العظام، إلى الشّرايين المستقرّة فيها... لا أرى عصفوري، ولا أسمعُ غناءَه، لا أفلحُ في زحزحة نفسي من أمام الزّجاج، لا أفلح في إزاحة الغباش الرّقيق عنه، أخفقُ في بعث إحساسٍ طفيف بالدّفء أكافحُ به هذا السيل الجارف من البلل، من الأمطار.

إنّه الشّتاء الأوّل بعد رحيل فاطمة، كأنّما الدّنيا تشاركني بكاء قلبي... هل تحسّ هي بي، هل تدرك مقدار الفراغ الذي خلّفته وراءَها؟ زياد دائماً إلى جواري، يكاد لا يفارقني إلّا حينما يكون في عمله، ما تبقّى من نهاره وليله ينفقه وهو بين يدي، يحتضنني، يلامس وجهي، يقبل أناملي كأني طفلته المدلّلة، يضعني في حضنه الدافئ، يقول لي:

- إيّاك أن تخافي القادم من الأيام، أنا لست حيّان، وأنت لست فاطمة، أنت روحي التي اتخذت لها شكلاً إلى جواري.

أحبّه وهو يهمس ذلك بأذني، أمسك أنامل يده الدفيئة التي تسعى على عنقي، أقبّلها واحداً واحداً وأجعلها في يدي، أضعها على صدري، ليشعر بنبض قلبي وشراييني وأنا بين يديه.

كثرٌ يقولون لي إن وجهي بات يشبه وجه فاطمة بعد موتها، لكنّ فيه ما هو أجمل، هو يشعّ أكثر، أعرف أنّ حبي لزياد هو الذي يضيئه على هذه الشاكلة.

أفكر بحيان الذي يستمتع بالمنصب الجديد وبالزوجة الفتية الصّغيرة، لم يكن ما فعلت أكثر من هذا الماء الذي ينصب بغزارة في كل الأنحاء، يستقر حيناً وبعدها يعدو، لا أحد يفكر به بعد حين .... لازالت عيناي تبحثان عن عصفوري، ألمحه الآن يعدو مجدداً، ينتقل من غصن إلى غصن آخر، يسقسقُ بنعومة، ينتقل من شجرة إلى أخرى، يقتربُ فجأة من الزجاج الّذي أزحت الضباب الرّقيق عنه، يحدّقُ في عينيّ لحظةً، يرتعشُ جسدي، أستشعر أنفاس فاطمة تطوّف حولي، يستمرّ العصفور يحدّق إليّ، الرّعشة تعروني، تغمرني أكاد أحسّ أنّ فاطمة تحدّق إلي من خلف الزجاج، تبسم لوجهي المتلهّف إليها، لحظةً، لحظات، ويبتعد عن الزجاج، يتراجع إلى الخلف، ليطير بعدها حرا، سهما صغيرا ملونا متعاليا نحو السّماء..... تماما كما تحررت هي بروحها وبجسدها من كلّ قيد....

تمّت

هدى عيدكانون الأول / 2012

... أنتِ أصغر مني، أعلم، يبدو عليكِ في الثامنة والثلاثين أو في الأربعين، نعم، نعم، أصبتُ مجدداً، لكنكِ ما شاء الله، العَدْرا تحميكِ، ماذا أقول؟ جميلة الأعمى يرى ذلك، وجسمك «لبّيس»، أنتِ مُرّي على المحل، وسترين كيف أجعلكِ Style، قطعة غير شكل.

ماذا زبائني؟ أكيد، أكيد هم منوّعون، من كلّ الطوائف، بتشوفي عندي موارنة، ومسلمين ودروز، الثياب ليس لها هوّية، مهنتي عابرة للطوائف والحواجز والمناطق، ها ها ها، وأنا ألاطف الجميع، طبعاً لا أحبّ الجميع، قلبي لا يتحمّل، لكني ألاطفهم طالما يشترون، المهم هو البيع، أبيعُ كثيراً وحياتِك، حتى لو ربحت قليلاً أحياناً، لكن «الحركة بركة»، أفضل من لا شيء... هكذا يشتهر محلي، يقصدونني من كل مكان، خصوصاً من هناك، من الناحية الأخرى... باتَ معهم أموال، ها، تغيّرت الأحوال...

هدى عيد، من مواليد بلدة الوردانية، قضاء الشوف.

- حائزة على ماجستير في اللغة العربية وآدابها من الجامعة اللبنانية، الفرع الاول - بيروت.
- أستاذة مادة الأدب لصفوف المرحلة الثانوية.
- أخْرَجت ثلاث مسرحيات للمسرح المدرسي:
- مغامرة رأس المملوك جابر، 2003
- حنظلة، 2004.
- طقوس الإشارات والتحولات للمسرحي الكبير سعدالله ونّوس، 2005.

صدر لها عن دار الفارابي:

- في بلاد الدخان، ط1، 2001، ط 2، 2011.
- الحياة في الزمن الضائع، 2006.
- ركام، 2009.
- نوّارة، 2011.

ISBN 978-9953-71-799-9
9 789953 717999